

حكايات المدن الآمنة
قصص قصيرة
علي حسين الخباز



الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة
موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق
٢٠٠٣م - ٢٠١٧م

الإشراف العام:
اللجنة العليا موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق
مركز بيئة للأمن الفكري والثقافي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
()

البريد الإلكتروني:
www.baina.com

العراق: كربلاء المقدسة
الطبعة الأولى ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

حقوق النشر محفوظة للأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

التصميم والإخراج الفني:
عمار محمد العقابي
عماد محمد البيرماني

حكايات المدن الآمنة

قصص قصيرة

علي حسين الخباز

اليشماغ الأسود

كان ينبغي أن لا أقبل زيارته، لكنّه جاء على غفلة من أمري، كأبي زائر جاء ليعود مريضاً ليخفف عنه وطأة المرض، ويدعو له بالسلامة والشفاء العاجل هكذا خيل إليّ وأنا أعيش لحظات عمري الأخيرة، وكان بودي أن أسأله ما الذي يريده منّي جاء ليراني كيف أودع الحياة حافياً إلا من جرائمي، وحيد أنا رغم وجود كل من حولي وهو الوحيد الذي جاء يحمل معه كل ناسه، كل أهالي (القيروان) ليقتصّ منّي، لكن ليته يتكلم، ليته يقول شيئاً كي يريحني، ليته يشتمني، أو يهددني وكأنه جاء ليقتصّ مني بصمته وكم هو مرعب هذا الصمت، ليقتصّ مني بهذا السلام الذي لا احتمال صحوته: ماذا تريد مني؟ من أنت؟ يشماغك الأسود يستهدفني يستهدف ساعات عمري الباقية ليقول لي: أنا الباقي هنا أنا اليشماغ الأسود، أنا ابنٌ لتعفر وابن سنجار ولي كل المدن التي قتلت ناسها.

يا الله إشهد لي لو عادت لي الحياة، سأذهب لأعتذر منهم واحداً واحداً، من كل أب قتلت أبنه، وكل عائلة هدمت دارها وهجرتها، وكأنّي أنا سلطان الأرض وأنا خالق هذه الحياة أعطيها لمن أشاء وأسلبها ممن أشاء، هذا الرجل الصامت أمامي

صاحب الإشماغ الأسود ليس غريبا عن عيني، حتما هو واحد من أولئك الذين ضيقت الحصار عليهم وجعلتهم لا يستطيعون مراجعة الدوائر، أنا الذي طردت مرضاهم من المستشفيات وفجرت دور عبادتهم.

نعم، عرفته الآن، إنه، نعم هو، كيف استطاع أن يدخل لحظات موتي الأخيرة؟ عرفته حين أخبروني انه يرقد في مستشفى السليمانية ليجري عملية القسطة، وقد أهديته عبوة ناسفة وضعتها في مرشّة الماء لمزرعتهم فقتلت أخاه، وعند عودته سالما أهديته أربعة جنود يستقبلونه بلا رؤوس، نعم تذكرته، رأيته ينظر إليّ بحقد وأنا أفجر سيطرة الشهيدين، انا أعرف أنك عشتّ تتمنى أن تراني بهذه الحال، تتمنى أن أعيش ذات الحياة التي صنعتها لكم، تتمنى أن ينفجر بيتي على أولادي كما كنت أفجر بيوت الناس على أولادهم، كنت تتمنى أن تعيش الحياة بسلام أنا أعرفك كنت تحلم بالأمن والأمان وكأنك جئت لتقول لي أذهب إلى الجحيم سنرتاح منك ومن شرك، لكنّ الذي يحيرني الآن هو هذا الصمت؟ ساكت أنت دون كلمة توبخ تريحني بها، سبني يا أخي أو وبخني كما تريد، هدد مثلما كنّا نهدد أهلك وناسك، لماذا لا تتكلم قتلني بهذا الصمت المرعب؟ أقرأ في عينيك أشياء وأحلامي، أنا لم أكن مثلك أحلم بالحياة، لا وقت لديّ للأحلام أنا رجل قررت أن أقتل الأمريكان بكل وجودي.

ماذا؟ ماذا أقول أنا؟

يبدو أنني تعودت الكذب على نفسي حتى في لحظات موتي! لا يجدي الكذب شيئا لا أحد يصدّق كذبك الآن، أيّ أمريكيان كنت أحارب أنا قتلت أبناء القرى الواقعة في تلعفر، ولم أقتل أمريكيا واحدا، أنا قتلت الأيزيديين، وقطعت رؤوس أبناء

تلعفر وضعت رأس احدهم في محطة الوقود قمت بتفخيخ الجثة، وعندما جاء والده ليرفع الجثة ها.. ها... ها.. إنفجرت..

إلهي ما زلت أضحك وكأني فعلا قدمت حياتي جهادا في سبيلك، سؤال يستفز موتي الآن وأنا أستذكر محطات حياتي على فراش الموت، هل الله سبحانه هو من خلق الشيطان؟ أم الشيطان هو من صنعنا نحن؟ كيف تسلط علينا من دون الناس بهذه القوة وبهذا التمكن؟ لطفك يا إلهي يبدو أنني صرت أمتلك القدرة على الزيف، أزيّفُ كلَّ شيء حتى أنت يا رب قد زيفناك.

يا إلهي، خلقنا لك بديلا عنك، صغناه من ذواتنا إله داعشي، وإلا ما معنى أن نتخلص من إنسان بالقتل ثم نعود لنفخخ جثته ليقتل أهل بيته؟ إلهي من أين لنا هذه القسوة والندالة والإجرام؟ وكيف أسميه مذهبا وسنة؟ وعشرات الذين قتلتهم هم من أبناء السنة؟ أليس سنياً ذلك الشاب الذي علّقه باب المصرف القديم بحجة أنه يتعاون مع الأمريكان؟ ألم أغلق طريق تلعفر وطريق سنجار لأقتل العوائل هناك؟! أربعة عشر شخصا قتلتهم عند مدخل (سنجار) ما علاقتهم بالأمريكان، كذبة ابتدعتها ونحن صدّقناها، إلهي، هل ينفع الموتى هذا الاعتراف، وهل يخفف عنهم الألم؟ وهذا الزائر صاحب الإشاع الأسود ينظر إليّ كأنه يحاسبني أنا متأكد أنه ابن سنجار، ابن الإبادة الجماعية التي قدها بشراسة ومتأكد أنه من الشيعة الذين نصفهم بالروافض، إلهي، هل يحق لي أن أقتله كونه يختلف معي في العقيدة؟ ساعدني يا الله كي أردّ هذا الصامت الشامت، أنا أعرفه نعم أنا أعرفك ومتأكد من ذلك أنت ابن قرية (الشرايع) الجنوبي أنا قتلت منكم الكثير أو ربما أنت من قرية (شوارة أبو زيد)، صحيح لماذا أنت ساكت؟ أنا الذي سأموت، أنا الذي سأحمل هذا الوزر القاتل على

عاتقي، أقسم أني أنا المجرم ولست أنت، عرفت الآن من أي القرى أنت، أنت ابن قرية (شوارة المجيد)، أم يا ترى أنت ابن قرية عزيز أغا؟ أو ابن قرية (خرائج العمود) أو ابن قرية (الأبطخ)، وقرية (خراب جعاب).. نعم عرفتك أنت ابن قرية (السينو) أو ربما أنت ابن كل القرى التابعة للقيروان لأنها موطن الشيعة، أتدري أنا أعرف ماذا تقول داخل نفسك الآن أسمعك وأسمع أين روحك أنت لم تأت لتقتلني لكن تتمنى أن تطول ساعات مذلتني، تقول إننا قبلكم كنا نعيش بسلام لا نفرق بين شيعي وسني ولدينا صلوات قرابة، نعم أنا أقرُّ لك الآن وفي أنفاسي الأخيرة أننا أجرمنا بحقكم، وتعاملنا معكم بوحشية، الآن عرفت أننا لا نمثل السنة إطلاقاً، وإلا أيُّ دين يقبل أن نحاربكم بالماء ونعطش أولادكم وأطفالكم، لا ماء للشيعة ونحاربكم كما حاربوا الحسين، يا إلهي، لماذا هذه الأمور لم ندركها من قبل؟ لماذا العمي الذي غشي بصيرتي يفتح الآن الرؤى أمامي على إطلالة حياة ماتت بين يدي، هل يا ترى هذا الصراع الذي أعيشه الآن يعيشه كل داعشي عند موته الحقيير، أم انا الوحيد الذي أتعذب؟، إلهي ابعث لي الموت فهو أهون من صمت هذا الواقف أمامي صاحب الإشماغ الأسود، إنه يقتلني بنظراته وكأنه يقول لي قبل رحيلك أوصي أولادك كي لا يكرروا ما فعلت، لا لم يعد أحدهم يسمعني الآن تعودوا على بيع الرؤوس، عمروا بيوتهم من دماء المذبوحين، أكيد سيصرخون بوجهي: أنت الذي عبثت في الأرض فساداً، أنت الذي حرمتنا وحرمت الناس الأمان، علمتنا أن نبحت عن الشيعة لنقتلهم ونذبهم لأن رؤوسهم مصدر رزقنا، أنت يا أبي جعلتنا نعيش العزلة بحجة أن نجعلهم يعيشون العزلة، هاهاها سيعتبروني خائناً ويقتلونني، أين ذهب عني؟ هل شبت شباته؟ أم جئت لتكبلني بالحزن والألم يا صاحب الإشماغ الأسود؟ أنا ولست أنت من خسر الدنيا والآخرة.

إمرأة تلغفرية

أرى بين عينيها حزنا عميقا، يُعمق الآهة التي اجتاحتها دون أن تدري، كانت فرحتي بلقائها كفرحة مَنْ عثر على كنز، بالمناسبة انا لست من أصحاب العلاقات السريعة مع النساء كوني صعبة المعاشرة، لكن هذه المرأة تمتلك جاذبية غير طبيعية، إلتقيتها في منطقة ما بين الحرمين في كربلاء وانا ازور معرضا للصور الفوتوغرافية، أُقيم لضحايا مدينة (تلغفر) لتبيان الظلم الذي وقع لهذه المدينة.

رجاء حسن تربوية نازحة من تلغفر إلى كربلاء، توطدت العلاقة بيننا وكأنني أعرفها منذ سنوات، دخلنا إلى معرض الصور وكانت تنظر إلى الصور بدموع عينيها وتبكي ومن ثمّ راحت تقرأ لي قضية كلّ صورة من تلك الصور المعروضة، توقفت أمام صورة كبيرة لجماهير شبابية من تلغفر يحملون أسلحتهم ويهزون بها، وروح التحدي واضحة في كل تعابير الصورة.

قالت رجاء: عند سقوط الموصل توجه الدواعش نحو تلغفر لكن شبابنا تصدوا لهم قبل دخولهم المدينة لأن تلغفر كانت الهدف الأكبر والأساس لداعش، أكثر من الموصل نفسها.

قلت: لحظة يا رجاء دعيني أفهم الأمر، ما الذي يغريهم في تلغفر إلى درجة يفضلونها على الموصل إلى هذا الحد؟ هل هناك آبار نפט مثلاً؟! مُعادن ومشاريع صناعية ضخمة أو موارد مالية؟

صمتت رجاء لحظة وهي تنظر إليّ بمودة، امرأة معتدّة بشخصيتها تعرف متى تسكت ومتى تتكلم. قالت لي: هذا الاهتمام الداعشي بتلغفر لسبب رئيس، فأن الحقد الذي يحملونه على هذه المدينة يجعلهم يفكرون باحتلالها وتصفيتها لكون أغلب سكانها من أتباع أهل البيت عليهم السلام، والشيعنة متواجدون في تلغفر من تواريخ قديمة وهم سكانها الحقيقيون في معظم مدن وقرى تلغفر.

صوت يقطع فرحتي امرأة تنادياها: رجاء سنذهب الى الفندق.

عرفت أن رجاء تسكن مع النازحين في فندق كربلاء القديم الواقع في منطقة حي الحسين والذي خصّص للنازحين ولزيادة الأمان والمحافظة على العوائل. وكانت حركتهم مرتبطة بمجاميع منظمة تزور سوّيّة وترجع إلى الفندق سوّيّة، وفرصة التعارف بإنسانة بمواصفات رجاء ليس سهلة ولا اعتقد تتكرر عندي لكوني أساسا لست مجاملة ولا من طبعي التعرف على الصديقات بهذه السرعة.

بعد أيام اشتقت إليها فأخذت أمني معي وذهبتنا إلى فندق كربلاء، استوقفنا أحد الأساتذة المحترمين وهو رجل مربي ونازح اسمه (أبو اشرف) الذي بادر بتأمين تواصلنا مع رجاء؛ فالأحوال في الفندق تحتاج إلى مثل هذا الحرص والحيلة.

قال: نحن ناس عشنا ويلات الحرب في داخل بيوتنا وكنا نعيش فيها وكأنها معسكرات حرب، فاستهداف الأهالي والعوائل والأطفال والنساء بهذا الشكل المريع من الطبيعي سيؤثر على نفسيّتنا.

إلتقيت رجاء وتعرفت على عائلتها وعرفتني على باقي النازحات وعرفت من خلال تواجدي أن العبتين الحسينية والعباسية وقّرت لهم الكثير من سبل العيش حيث وزعت لهم (تنانير) معدنية للخبز وطباخات وأواني طبخ وبعض ضروريات الحياة والتموين اليومي والأموال لقضاء بعض الاحتياجات، لكن المشكلة أن أعداد العوائل النازحة أكبر من سعة الفندق فكان الجميع يبحث عن مخرج من هذا المأوى وكلُّ عائلة من هذه العوائل تحلم بإيجار بيت مناسب.

بعد مدة قررنا أنا وعائلي قراراً من أجمل القرارات التي اتخذناها في حياتنا وتركت لنا بصمة جميلة، لقد زرنا أهل (رجاء) وطلب منهم والذي أن ينتقلوا للسكن معنا، فبيتنا يتسع علينا وعائلة (رجاء) مكونة من أم وأب وزوجة أخ أرملة وثلاثة أيتام، وكان كلُّ همنا أن نرفع عنهم الحزن والقلق وأن نوفر لهم المأمن المريح، ونستمع لهم بشغف وهم يقصون لنا قصص التضحية.

نحن من حي المعلمين وأول الانفجارات حصلت عندنا واستشهدت الكثير من العوائل، لي أخ اختطفوه وجدناه بعد يومين بلا رأس، لقد ذبحوه ولديه ثلاثة أيتام وأرملة، ومن حي المعلمين أيضاً، اشتعلت ثورة الرد، وشباب تلغفر أبطال جاهدوا ضدّ تنظيم القاعدة فأخرجوهم من تلغفر إلى الموصل وفي عام ٢٠١٤م بدأ الأهالي مقاومة شرسة لمدة خمسة أيام دون إمدادات تديم المواجهة، وكانت كلُّ يوم تصعد أم رجاء إلى سطح الدار تزور الإمام الحسين عليه السلام وتدعو لشباب تلغفر بالنصر المين، الألفة جميلة وكلُّ ثنائي له ألفته الأمهات والآباء وأنا ورجاء وأرملتهم الجميلة أمُّ لثلاثة أيتام، الأم تبكي أهلها وتروي حكايتها: بيتنا في منطقة (حسن كوي) جرى فيها قتال كبير عام ٢٠١٤ ميلادي دار القتال في الليل وتمتاز منطقتنا بوجود حواضن لداعش داخل المدينة.

كان داعش يوزع مهام القناصين وبدأوا بقنص المقاتلين، الذين يقاومون داخل تلعفر. استشهد جميع أهلها وفقدت زوجها، وليس لها في الدنيا سوى أيتامها الثلاثة، كان أبو رجاء يتنفس مدينته فهو يذكرها ليل نهار ويحمد الله واحتضنتهم ليكون لهم بيت، ومن الذكريات اللطيفة ان تحتفل العائلة بعيد ميلاد أصغر الأيتام وحضر حفل عيد الميلاد أبناء الجيران، ومجرد التفكير بالاحتفال كان بهجة كبيرة أفرحت عائلة رجاء وأرسلوا على أقربائهم النازحين. في فندق كربلاء، وكانت فرحة كبيرة ينقصها وجود والده معنا، كانت ست رجاء كما يعجبني أن أناديها، وتمتلك تفاصيل دقيقة عن أحداث تلعفر.

تقول: كان وكلاء السيد السيستاني أمد الله بعمره خير عون لنا في هذه المنازلة، وكانت المساعدات تصل إلينا أينما كنا، من مساعدات مالية ومواد غذائية شملت جميع الانتماءات وبعد صدور الفتوى المباركة كانت استجابة الشباب واسعة وشكّلوا اللواء الإمام الحسين (عليه السلام)، والتحقوا بالقوات الأمنية التي تقاوم في تلعفر، وأغلب الشباب بعد أن اطمأنوا على عوائلهم عادوا ليحرروا تلعفر.

تقول رجاء إن ميزة شبابنا التلعفري أصحاب مبادئ وقد سجلت بعض المعارك مواقف مشرفة ومنهم الأبطال الذين قاتلوا في (مكحول)، ويقول الحاج ابو رجاء: إن الذي قدّموه لنا أهل كربلاء وناسها وأبناء الوسط والجنوب كثير، وكلها من المساعدات المهمة، وكانت من اجمل المواقف التي لا تُنسى في حياة عائلتي يوم عودة رجاء وأهلها الى مدينة النصر مرفوعي الرأس بعد اندحار قوى الظلام.

دمعة مجهولة الهوية

إنتهى الهجوم الذي أعدّه الدواعش على بيوت قرى سنجار، والحمد لله على سلامة القرى التي عاشت أسابيع مرعبة تحت تهديدات الدواعش، فهم هددوا باقتحام البيوت في قرى عديدة مثل قرية (الشرايع) الجنوبي وقرية (شوارة المجيد) و(عزيز أغا) و(خرائج العامود) وقرية (الأبطخ) وقرية (خراب جعاب) وقرى أخرى مثل قرية (خراب جعان) وقرينتا قرية (السينو) وهذه القرى تابعة للقيروان تقطنها الشيعة، وبزغت الشمس يومها ضاحكة لهذه القرى، وانتهى الهجوم الذي أعدّ له الدواعش على بيوتنا وأبيد جميع المهاجمين، ما عدا قائدهم الذي خرّ مرعوباً أمام قوة الأهالي، ورفع يد الذلة اسيراً، مشهد يحمل الكثير من الصمت الصاحب، نظرت إلى صاحبي وهو يفور من الغضب ويرمق الأسير المرعوب بنظرات فيها الكثير من الكلام، يحاول الأسير أن يزيد ذلته انكساراً أكبر ليستجدي منّا الرأفة في حالة تكسر الخاطر.

سألته: ماذا ستفعل به؟

سؤال يثير مكانم الجراح لا أحد من شبابنا يحلم بالقتل، بل يلمون بالمحبة والسلام والتعايش السلمي، وتبقى للجراح حوبة وللألم صرخة ترد الحيف.

ماذا تريدني أن افعل؟

سأريه نجوم الظهر، سأقتص منه وجعي، ووجع الناس والبيوت التي فقدت ناسها، الجرح كبير وماذا تريد أن افعل به؟

أنا أعرف أن الجيوش تحتفل بالنصر حين تقابل الجيوش لكنّ (الدواعش) يخوضون حربهم في أزقتنا وبيوتنا ويهربون من مواجهة الحشد، لذا يهربون الأطفال والنساء، ويرعبون طلاب المدارس ويقتلون العمال والشيوخ وكأن بيوتنا معسكرات حشد يرتعبون منها، نعم سأقتص منه لكن بعد أن أواجهه بجرائمه ما دام هو قائد تلك المجاميع، وصاحب أمرها فهل يعلم بأن مجاميعه ذبحوا شباب أبرياء من قرى سنجار؟ ونشروا الرؤوس في الطرقات ليرعبوا الأهالي؟ بيوتنا فقدت بسببهم الأمان، هل أحدثه عن الجراح؟ ماذا سأقول له؟ انكم تحملون وحشية لا يملكها البشر ولا يرضاها دين، لقد قطعتم عنّا الماء والكهرباء وتعرضت قريتي لخراب شامل، من أهم الأسلحة التي استخدمتموها هو الماء كما فعل الجناة في عاشوراء الحسين، منعوا الماء عنه وعن الأطفال والنساء ها انتم تجعلون كل بلادنا طفوفا. فصرت أنظر إلى الداعشي الأسير لأعرف ردود الفعل عنده، أراه يتألم ربما يتألم حقيقة، لأنه لم يترك لنفسه فرصة مواجهة الحقيقة والان يواجهها قسرا، هذه هي الحقيقة، هذه هي انجازاتهم المجرمة، ينظر إليه صاحبي بألم: ألم تكن تعلم بما تقوم به مجاميعك من قتل وتدمير وخراب؟ ينتشرون في الطرقات بحثا عن أي مواطن شيعي ليقتلوه بأبشع طريقة، هل تستطيع أن تقول لي بأي دين تذبحون أبناءنا؟ لماذا تقتلون الشيعة وتعذبون الأيزيدية بأبشع طرق التعذيب وتقتلون كل من يخالفكم تحت أي عنوان كان؟ الآن أنظر لنفسك أين ذهب الجبروت الزائف وأنت تقبع كالجرذ في مصيدة غرورك.

كنت أنظر إلى صاحبي الذي كان ينزف الكلمات، وليس عند الداعشي الأسير سوى أن ينظر إلى أسفل قدمه، أشعر به أنه يريد ان يقول لنا أشياء كثيرة لكن الكلمات لا تسعفه، والخيبة أكبر منه، هل هو فعلا يعيش لحظات الندم؟ أم عبث به الخوف فانهار تماما؟

و حين سكت صاحبي، قلت لأحدثه وأعري فيه حقيقة شعاراتهم المزيفة: هل تتصور أن جملة - شعارات دين ولواء يرفع اسم الله - قادرة على أن تحتوي جرائمكم وتغطي عليها؟ أي دين هذا الدين الذي يميز لكم هذه الجرائم؟ عوائل فتك بها الجوع والعطش وأنتم ترسلون لهم الطحين «مفخخات موت»، تنظر إليّ وكأنك لا تعرف شيئاً عن الجرائم الكبرى، في حي الوحدة انفجرت سيارة حمل كبيرة دمرت أكثر من ثمانين منزلاً، وثمانين عائلة، منازل فيها عوائل ونساء وأطفال وشيوخ كبار السن، تفجرون قوتهم وتذهبون لإقامة صلاة جماعة لتؤدّوا صلاة الشكر كما فعلها جند (عمر بن سعد) بعدما ذهب الحسين واهل بيته عليهم السلام أقاموا صلاة الحمد، يا لحبيبتكم وهذا الدم في أعناقكم إلى يوم الدين.

قام صاحبي يحدثه وقد ظهر عليه التعب الشديد: من يعطيكم الأوامر؟ أنا متأكد أنه غريب فنحن اهل تلعفر عشنا لمئات السنين عوائل موحدة، وحصلت بيننا مصاهرات فما الذي حدث؟ ما هي المغريات التي جعلتكم تذبحون الناس بهذه البشاعة؟ تلعفر الجميلة تتحول بأيديكم الآثمة إلى خرائب، أنت جبان فقد قتلت ولدي دون ذنب وقتلت أهلي وناسي وجيراني وعندما وصل الموت إليك رفعت يد الذلة والخنوع لتنجو بنفسك وأنت تعلم أنك تقودها إلى موت ذليل.

حين هدأ صاحبي تعيّر نبرة الصوت وتغيرت نظراته، صار ينظر إليه بعين أخرى، بعين بيته ومذهبه قلت له:

- أمامنا أمير المؤمنين (عليه السلام) أوصى خيرا بقاتله.
- إنَّبهَ إليَّ ودموع عينيه تشهد اننا أبناء رحمة زاكية، تذكّر جرح «الطبرة» فبكى.
- ما لهؤلاء الناس يذبحون أبناءنا بدم بارد يا إلهي؟! حينها إلتفت ليسأل الأسير:
- هل أنت جريح؟ أجاب برأسه. لا
- هل أنت جائع؟
- قال: لا، لكنني عطشان.
- أجابه لا شأن لي بما فعلته من جرم أنت وعصابتك، أنا أعرف مسألة واحدة وهي أن مولاي الحسين (عليه السلام)، سقى أعداءه الماء، لذلك سأسقيك الماء، وأعرف أنكم لا تسقون الضحايا قطرة واحدة.
- وهو يحدثه بهذا الألم وبهذه اللغة المشبعة بالضميم، قدّم له بطانية ليتدثر بها، أرى نظرات الأسير محيرة، بما كان يسمع عن الشيعة وما يراه من هذا الجرح العميق في الصدر، إلّا أن رحمتهم لا تغفل، عن انسان مهما كانت جريمته.
- قلت لصاحبي: لو كان هذا الأسير إنسانا لسمع أنين الأمهات وآهات الجرحى الذين ذُبحوا بلا ذنب، لكن عليه أن يعرف من نحن، ومن نكون، وهو يمتلك عنا معلومات خاطئة، فلنصحح له معلوماته لنريه حقيقتنا، نحن أبناء هذا البلد من شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام).
- وبعدما هدأ قليلا وقال لي: اتصل بالفوج ليأخذوه نحن لا نقتل أسيرا.
- إلتفت إليّ وهو يستغفر الله، نظرت إلى وجهه ونظرت الى وجه الأسير رأيت في عينيه دمعة لا أعرف كنهها الى اليوم...

شهقات مدينة

هل يستطيع الكاتب أن يستنطق المدن المذبوحة؟، قلت: نعم، عندما تسمو ألفة التواريخ، تصير كلُّ المدن المذبوحة كربلاء، وأنا ابن الجرح القادم عبر التاريخ قادر على استنطاق مدينة تلعفر وأن أجري حواراً معها، لذلك رحبت بي وحدثتني بلسان كربلائي يحمل كبرياء هذا الشموخ الحسيني:

كان الظلام قد زحف على نهراقي، تفجيرات، واختطاف ناس، وعويل، جراح لا تندمل، وبين جرح وجرح ستجد جراحا جديدة تنزف، وأنا أتعرض إلى هجمات شرسة، وجوههم مقنّعة وأيديهم تحتضن أسلحة الموت، مرتزقة لا يعرفون شيئا عن الحياة سوى العنف والمال.

وقف ما يُسمى أمير داعشي يتحداني ويصرخ بوجهي: تلعفر، سأذبح فيك كلَّ حسين.

أنا كنت متيقنة من أن انتيائي هو جذوة المواجهة، بدأت التفجيرات بحي المعلمين وكان الخوف يدفعهم إلى القسوة، والحقد يوزع فيهم الجبن، نعم، والله إنهم جبناء، فبعد حملة التفجيرات في حي المعلمين بدأوا بختطف الناس وقتلهم

ودفنهم أحياء، جرائم بشعة، بشعة جدا، ومن طبيعة المدن المذبوحة لا تعنيها الأمور السياسية التي تُعدُّ في عروش التهلكة، بقدر ما يهتمها أمان أهلها وناسها، مدينة آمنة وليست معسكرا كي تُستباح، حتى الحيوانات لم تكن بمأمن عنهم فقد فخرها، لا ضمائر لديهم تبصر عمق الجراح بل تفكيرهم لا يشتغل إلا على القتل. اختطفوا أحد الشباب وبعد أن ذبحوه فخرها جثته لينفجر في حضن أبيه.

صرخت من شدة جراحي وطلبت النصرة حتى كاد يذبل الصوت: ألا من ناصر ينصرنا؟

حكومة القضاء باعت إنسانيتها بكرسي أعور، قلت لها لحظتها كانت السماء تحتضن جراحي وهي تلهج بالدعاء، لأنها وجدت كربلاء فيك، وهذا الذي أربع الدواعش، قالت لي:

يا ابن كربلاء التفجيرات التي طالت جسدي لا تُعدُّ ولا تحصى، عجالات مفخخة وعبوات ناسفة وقصف هاونات فكانت الحرب ضدي شرسة، إلى أين يريدون أن يصلوا بكلِّ هذا الحقد الأعمى. فهم يتحدثون باسم الدين وما حدث في (دورة القلعة) لا يقبله دين ولا يرضي الله صاحب الرحمة، جريمة تكشف حجم الموت الذي به يتسلحون، هل روى لك أحد تفجير دورة القلعة، شيء خارج مديات البوح؟

قلت لها: إهدئي يا مدينة الولاء الحسيني، لم أكن أعرف من قبل أنها طيبة الرائحة، حقيقة أقول إنَّ فيها رائحة كربلاء وقداسة جراحيها، ويسري الدعاء بكلِّ شرايينها وعلى كلِّ جادة شهداء تناثرت أجسادهم وكتبوا بدمائهم الخلود، وأنا

أعجب كيف لمرقد شهداء أصحاب الحسين في حضرة الحسين عليه السلام أن يسع كل هذه الأجساد التي تلتحق بهم كل يوم.

قالت: إن فساد الدين هو أن يرضى الإنسان بجور ملعون حروب فاسدة تحلم بالصدر والتشفي، انفجرت عجلة نوع «برازيلي» وسط الناس، ناس على باب الله تبع الخضر والفواكه وأغلبهم من الأطفال، ناس هم الضحايا وكان عددهم أكثر من سبعين شهيدا، ويقتلون غدرا وهم يحملون نوايا السلام والعيش بأمان الله، يقتلهم الدواعش كي لا يكبروا فيواجهوهم في ميادين القتال.

بغاة حرب لا يعرفون معنى أن يعيش الإنسان بأمان الله، هل أحدثك عن انفجار حيّ الوحدة، صرخت وكأنها تذكرت شيئا، سأحدثك قبل أن تذهب عن انفجار الطحين أعتقد انك سمعت عنه؟

قلت: من الجميل أن أسمعها من قلب الجرح.

تفجير شاحنة الطحين كانت وحدها طفاً يحتاج إلى نصره تأريخ، أتساءل كيف يروي العتاة مثل هذه الحادثة هل يتحدثون عنها بشماتة، وبفرح مبهج المعاني كيف ينظرون إليها، هل ورد في سجلاتهم أن نصرا كبيرا حققته شاحنة الطحين مثلاً؟ تنظيم القاعدة من الدواعش منع دخول المواد الغذائية إلى تلعفر، وعندما سمع الناس بأن شاحنة تحمل الطحين قد دخلت الحي تجمهروا حولها لأخذ حصتهم من الطحين لا أعتقد بوجود من يحمل الجرأة على جوع الإنسان ويبقى معه دين أو انتماء، مواد متفجرة دخلت الحي عبر شاحنة الطحين وانفجرت بين البيوت - صار الحي عبارة عن أكداس من الجثث والركام.

سكتت تلعفر برهة من الوقت إثر الألم الذي سببه البوح، وهو النزيف، هل تعرف يا ابن كربلاء أن عمق الحفرة التي خلفها الانفجار عشرة أمتارم وتهدم ثمانين منزلا والضحايا مائة وخمسون شهيدا والجرحى مائتان وخمسون جريحا، عوائل بأكملها أبيدت، والوجع لا يرحم، قرى تحترق وبيوت تتهدم وشاب يقتل صبيحة عرسه، وناس تحت ركام البيوت ليتحول البيت إلى مقبرة، نعم أقول لك الحقيقة.

أردت أن أقوم لأغادرها، فقالت لي وهي تبسم:

إن المدن المذبوحة لا تنام وإذا أغمضت العين تداعبها الجراح، إنهم دائما يفجرون الأماكن الضاجة بالحياة، يجاربون قوت الناس، تفجيراتهم بالطحين و بالسوق أو (بعلوة المخضر)، لدي إلى الآن ثلاثة آلاف جريحا وألف وأرعمائة شهيدا دفنهم داعش معظمهم من الأطفال والنساء وكبار السن والمرضى، اذهب مع السلامة يا ابن كربلاء لكن أمانة أن تنقل للناس هذا الحوار وأنا مازلت محاطة بالموت والإرهاب، سلم لي على كربلاء وقبّل لي ضريح الحسين عليه السلام.

شوكّة في عين داعشيّ

كانت النار في حينها تأكل وتحرق كلّ شيء، وكان المشهد مفجعاً لدرجة مفزعة، أن يقتل الإنسان أمة بدم بارد، وكيف يتجرأ الآدمي أن يفجر مجلس عزاء على روح ميت؟ ورائحة شواء لحم البشر تدفع الإنسان إلى الكثير من الأسئلة التي تحملها القلوب المشتعلة، لا أزعّم أنني أعرف كلّ ما يدور هنا لكنني أعرف ذلك الرجل الوقور الذي تقدم بخطوات حزينة وهو يتأوه بخفوت.

إقتربت منه، وقلت له: هي ذي تلغفر يا سيدي، استهدفوا الشيعة وأعلنوا عن طائفية مقبّية، إنفجار بالأمس عند عشيرة «الجوالخ» والعديد من التفجيرات واليوم أحفادك السادة «آل وهب» يحرقون في انفجار آثم راح ضحيته إثنان وأربعون شهيدا.

كنت أستعين بذاكرتي عساها تسعفني في سرد أحداث حي الوحدة وانفجار سيارة الطحين التي راح ضحيتها مائة وثلاثون شهيدا، ورحت أحدثه عن انفجار قرية (كبك) وتهديم عشرات البيوت وذهب ضحية هذا الانفجار إثنان وأربعون شهيدا ومئات الجرحى، وكأنّ علامات وجهه الوقور تقول لي:

أدري وأعرف وأنا عند كل انفجار أحضر لأرى كيف يقتلون أبنائي وأحفادي، صبرا وفداء لروح الانتماء، كنت أحاول جاهدا أن أرفع عنه روح الصمت لأنني أعرف ما فيه وما عنده من تأريخ يروي أحداث حرب عبر أزمته الجهاد الحقيقي الذي خاضه الشيعة في تلعفر، والحزن يشدُّ القلب حين أسمع شيخ الظلام.

يقول: إن شيعة تلعفر شوكة في عيوننا، نظر إليَّ السيد محمد يونس السيد وهب وكأنه فهم مغزى المواساة، كان العويل يؤجج الموقف لكنني أعرف وأعرف أنني أفق أمام السيد المبجل حامل لواء تأريخ هذه المدينة وشيعتها، لأعرف أسَّ هذا الحقد ومعنى الشوكة التي ترمد عين الشيخ الداعشي.

فقال لي: هؤلاء الذين يحترقون أمامك هم أولادي وأحفادي وناسي، نحن ننتمي إلى عشيرة السادة الموسويين في قضاء تلعفر، سكان مركز المدينة والقلعة القديمة والجزء الجنوبي من حي القادسية وحي نيسان، وحي المثني وقرية (هارونة) وقرية (صلوقيو) وأغلب المناطق الشيعية المستهدفة هي مناطق أهلنا.

قلت له: سيدي لا أريد أن أعبت هذا الحزن الذي يعتريك.

قال: يا بني الحزن ينمو عبر كل آهة إنسان، والوعي الذي نحمله لا يفرق بين مذهب ومذهب أو دين ودين، ولكنَّ هذا الشيخ السليط يضرب المعنى نحو هدف آخر.

صدقني يا أخي القضية ليست مذهبية مثلما يشيعون، لو تعرف لماذا تلعفر هي المقصودة في هذه الحملات العنيفة، ولماذا هذا التجاهل تجاه جراح أهلنا، لعرفت معنى الشوكة التي في عيونهم.

الشيعة في تلعفر لهم وقفة مجيدة في ثورة ١٩٢٠ ميلادي الكبرى، وهم أول من استجابوا للمرجعية المباركة حينها وأوقدوا نيران الثورة ضد المحتلين الإنكليز في الرابع من حزيران ١٩٢٠ ميلادي، وكان لشيعة تلعفر تأثير في تغيير بريطانيا لسياستها، وهذه التفجيرات هي ضريبة الشيعة، ضريبة الموقف التاريخي الذي سجّله أحرار الشيعة وشهد لهم العالم بذلك.

كنت أنظر وأتأمل في شخصية السيد الوقور وهي تثور من الألم.

قال: نحن شيعة أهل تلعفر قتلنا الميجر (بارلو) معاون الحاكم العسكري والكابتن (ستيوارت)، واليوم يفجرون مآمتنا وأفراحنا وبالأمس كانت الطائرات الانكليزية تقصف تلعفر، توقف السيد قليلا وكادت دموع عينيه وخشيته من أن يبكي هو لا يريد أن يبكي لكنه يريد أن تكون تلعفر هي الشوكة التي تدمي عيونهم، اليوم رأيت أولادي وأحفادي يحترقون، جئت لأقول كلمة وأعود إلى مستقري، نحن شيعة تلعفر، نحن تاريخ تلعفر الحقيقي لا أحد يزايد علينا في حبّ تلعفر والعراق، جراحي جعلتني أقرأ أوراق التاريخ.

اللقاء على ضفاف النزوح

منزل جميل وحياة هادئة وجميلة وناس طيبون وكلُّ هذا الجمال لا يمكن أن يشعرني بالسعادة، فالحنين إلى بلدي يذبحني، والنزوح غير الهجرة يحفر في القلب وإن توفرت لك الحياة الجميلة، خربة في تلعفر تعادل عندي الدنيا بما فيها وتشعري بالسعادة أكثر من هذا العالم الجميل، والنزوح جرح في الخاصرة وكمد مؤثر بالقلب. والعالم إلى اليوم يفهم قضيتنا بالشكل الظاهري المعبأ إعلاميا وهو بعيد عن الدقة والتفصيل ولا يشكل كل الحقيقة، الأغلب ينظر إلينا على أساس أننا متعاطفون مع الدواعش بحكم الانتماء المذهبي، فهم يدعون الانتماء لمذهبننا السني الإسلامي الذي يملك العاطفة والمحبة والتواصل والسلام.

مؤلم حين يصل بك الأمر أن تفقد روح الإنتماء إلى ناسك وأهلك، ماذا لو أحدثك اليوم في هذا اللقاء العابر عن أشياء تدهشك، قلت له أنا سررت بمعرفك وكنت عطشاننا إلى مثل هذه الجلسة التي تجمعني ببن هويتي لكي أقول لك أنا منك وأنت مني، هويتنا لتعفر الخير والمحبة وما حدث يحزن القلب والتاريخ، والقضية أكبر من قصة نقرأها في كتاب أو مجرد قفشات أخبار تُبثُّ عبر الفضائيات أو محادثات

تُنشر هنا وهناك بحروف عصبية لكنّها غير مدركة لقضيتنا. نعم، لا أحد يدرك القضية أكثر مني ومنك، فأنا مثلك لا تمثل لي (غازي عنتاب) بكل ما تملك من جمال سوى محطة عابرة أتمنى أن نتجاوزها اليوم قبل غد، مدينة من أجمل مدن العالم لكنّها ليست مدينتي ولذلك الناس هنا تنادينني بالتلعفريّ ألا يحزُّ بالخطار يا صديقي أن تحتوينا (عنتاب تركيا) بالودِّ والمحبة والوئام وتجمعنا مثل هذه الجلسة الهادئة المفرحة وتعجز أن تجمعنا مدينتنا وهويتنا ومرسى الدم بمثل هذه الألفة، قد يكون هذا اليوم هو من أسعد أيام النزوح لأنني جلست مع ابن مدينتي، ابن الهوية التي ذبحوني بها.

يا إلهي كم الجرح كبير؟ لكن لا بأس إذا ما تحاورنا في بعض الأمور التي لم نقدر أن نتحاور بها عبر لغة التفجير والتفخيخ، نحن كنا نعاني كثيرا ومع هذا نؤمن بأن الفعل المجرم هو عبارة عن دعم وتمويل خارجي وعناصر استوردوها من مختلف بقاع الأرض، لتأجيج النعرة الطائفية ومع هذا كنا على ثقة أن هذا الأمر لا يرضي الأخوان السنة في تلعفر.

قال سأحدثك عن قضية أخرى، مع كل هذه الجرائم التي قاموا بها منذ ٢٠٠٤ ميلادي هي جرائم موجعة تضرب صميم ألفتنا وتعمل لتفريق صفنا الوطني لذلك هم من كانوا يسعون لبث إشاعات انتمائنا لهم ويثبوا إشاعات التعاون الشعبي معهم ضد الشيعة والأيزيدية على أساس أن سنّة تلعفر معهم ويعملون عندهم ويتعاونون معهم وكانوا يعملون ليصوّروا للعالم أننا حواضن سنّية نمو لهم بالمعلومات.

سحب صاحبي نفسا فيه الكثير من الحزن والألم، لو كان فعلا هذا التعاون موجود على مستوى شعبي كما يقولون لما نزحنا معكم سوية نحن أبناء تلعفر ومن

كُلَّ الطوائف نرحنا من تلعفر وهذا يوضح أن الدواعش لا إنتهاءات لهم فهم تجار دمّ وذبح رؤوس ولم ينبج منهم السنّي ولا الشيعي ولا الأيزيدي، نحن كنا نعيش تفاصيل ما تكابدونه بألم الحسرة والغبن الإنساني، كنت قريبا ذات مرة عن محطة الوقود وإذا بشباب قطعوا رأسه وعلّقوه خلف رأسه، منظر رفضه جميع أهل تلعفر بجميع إنتهاءاتهم، نحن لم نتعرف على مثل هذه الشدة التي لا رحمة فيها، تقدمت عائلته لترفعه من الأرض، فانفجرت الجثة فيهم. ويأتي مَنْ يقول إن هذا العمل سُنيّ. السنة يا أخي هم من يتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كررت خلفه صلى الله عليه وآله وسلم، قالها ثانية صلى الله عليه وآله وسلم، ابتسمنا لبعضنا وقال أكيد والله هم لا ينتمون إلى دين لأنها ليست أعمال دين والتزام مذهب، هم أدعوا أنهم يمثلون السنة والسنة منهم براء، أنا رجل سُني وعشت تلك الفترة في تلعفر، أهلنا عقلاء ويعرفون أن مثل هذه الأفعال تترك جرحا ينزف عبر الأزمنة يقتل الأمان عند أجيال قادمة.

أنت كنت تخاف الدواعش وتخافنا ونحن نخاف الدواعش مثلكم ونخافكم فنحن لا نطمئن إلى الدواعش وهذه حقيقة يعرفها الشيعة هناك، وإغراء بعض الشباب من أبناء الطيش لا يعني أن السنة معهم، فعندما استفحل أمر الدواعش في تلعفر كانوا يذبحون اولادنا بحجة أنهم لا يريدون سُنيا يتعاون مع الأمريكان، هم كانوا يقتلون أبناء السنة قبل أبناء المذاهب الأخرى بحجة أننا لا نريدهم أن يعملوا في القوات الأمنية وطالبوا الشباب بال غسل والتوبة وإلا، قتلوا الكثير منّا تارة بحجة الانتماء إلى الأمريكان ومرة أخرى بحجة الانتماء إلى القوات الأمنية وظهروا بحجة جديدة يذبحون مَنْ يتعاطف مع الشيعة أو يترحم على الأيزيدية، أغلب أهل السنة

رفضوا الدواعش وقاوموا العبوات الناسفة التي لاتفرق بين إنسان وآخر وبين ابن مذهب وآخر، لي ابن عم قتله الدواعش بتهمة التعاون مع الأمريكان قلت له، كان هناك مَنْ تعاون معهم فعلا.

أجابني بحرقة قلب - وهو ينظر إليّ نظرة مَنْ تفهم معاناتنا - تفجير حي الوحدة الذي راح ضحيته الكثير من الضحايا؟

قال: نعم، نحن كنا نتألم ولا تتصور أننا كنا نفرح لمثل هذه الجرائم، أبناءكم بالنسبة لنا بمثابة أولادنا، وأبناء مدينة تربطنا بهم أواصر الألفة والصدقة ومنا من ارتبط أسريا بعوائل شيعية، هل يعقل أن تعتقدوا أن إنسانا آدميا شريفا يقدر على أن يقتل العشرات من الفقراء الذي ينتظرون قوت عوائلهم.

فرحنا فعلا عندما سمعنا أن هناك مبادرات جمع الهوية مكونة من شيوخ الشيعة ووجهاء أهلنا في تلعفر ليساندوا الشيخ علي هادي آل مراد والشيخ جواد (الشيخ والي) لكننا تفاجأنا بأن رجال التنظيم من الدواعش رفضوا استقبال هذا الوفد التلعفريّ وهم في أرضهم وهويتهم.

تلك فاجعة وإذا بنا نراهم قتلوا الشيخ وقطعوا رأسه، فلو تأملنا لوجدنا أن سياسة قطع الرؤوس ليست عراقية، والقضية التي تحزُّ في القلب هو غياب القوات الأمنية بل خيانتها، وهذه حسبت أيضا علينا، والمعروف أن الخيانة هي خيانة في كل المذاهب والأديان فالخيانة لها هوية مستقلة.

أنا رجل تربوي ومدير مدرسة لم أكن أعرفك من قبل عندما حاصروا مدرستكم وكان الموت يحيطكم نحن وتقدمنا لنقف بوجههم ونعطيكم الماء والزاد ونفكّ الحصار عن جميع المدارس المحاصرة، وتربطنا علاقة هوية رغم انف الدواعش،

وحتى رد الجميل الشيعي كان يبهر الناس بأصالة معدنهم كانت المساعدات التي تأتي من قبل مؤسساتهم الدينية مثل مؤسسة الإمام الباقر.

قلت: الإمام الباقر.

ابتسم معتذرا وقال الإمام الباقر عليه السلام: كانت توزع على العوائل دون النظر بعين الطائفية الضيقة فلم تفرق تلك المؤسسات بين مواطن وآخر، يا لطرافة هذا اللقاء لم تجمعنا مدينتنا جمعتنا الخيام والمنافي، كان طموحنا الحقيقي أن نجعل تلعفر محافظة وإذا بنا نفرق كأبي شعب مشرد، القضية لو كانت مذهبية لما ضربوا كل البنى التحتية في تلعفر خربوا الشوارع والمؤسسات.

أنا مثلك يا أخي رجل تربوي ومدير مدرسة ولم أكن مواليا لأي طرف لكننا ابتلينا بالإرهابيين مثلكم، ورحيل الدواعش اليوم لا يكفي لاستعادة الוותام فورا فالجراح عميقة قد نحتاج فترة من الزمن، فهم زرعوا الجرح في القلوب المطمئنة بالسلام، لتطول فترة المعالجة وإلا لماذا إلى الآن عمليات العمران ساكتة تماما فكما تعلم أن الاستهداف كان بعنوان تصفية الأمريكان صار تصفية الشيعة فنحن تعرضنا إلى خسائر كبيرة، وأعطينا ضحايا بحجة التعاون معها بعد مجيئنا إلى (عنتاب) ومن خلال عملي بالتجارة سمعت الناس يتحدثون عن عراقي من تلعفر كان مدير مدرسة ويعمل بالتجارة كنت أظنهم يقصدونني إلى حين عرفت وجودك قررت أن ألتقيك ولتثبت للعالم أنا التلعفريون كلنا قلب على قلب، مثل هذه اللقاءات كانت حميمية تقربنا لبعضنا وتوقد الحنين وهوية انتهاء اذكر في إحدى لقاءاتنا

سألني ماذا تتمنى؟ قلت أن نتخلص من الدواعش الذين رحلوا عن الارض لكنهم عشعشوا في الرؤوس فأتمنى أن نعمل لتحرير أرواحنا من كل شر، فتلعفر هي (الروح والرؤية).

التمثال

في كل صباح يحمل الشارع مشهدا لجريمة، ذبحوا مهندا بعدما أنزلوه من سيارة الإسعاف، كانت إصابته خطيرة، جرح غائر في الصدر ورغم هذا قرروا أن يذبحوه في الشارع الرئيسي قرب محطة الوقود، الآن كل شيء في هذا الشارع عبارة عن جرح ينزف في خاصرة المدينة، كان السيد مهندس حسب شهادة الناس شاب خلوق يسألهم دائما عن أحوالهم، ويبدو أنه كان يحمل ابتسامته ولم يتخل عنها ساعة الذبح، ولم يتركها وهو يعرف أنها لا تصلح لمثل هذه المواقف، ولهذا صار حديث المدينة عنه وعن مشهد قتله، لكونه ليس اول رأس يذبح لا على مستوى التاريخ ولا على مستوى الحاضر المعاصر لمدينة أدمنت الذبح، لكن الدهشة أن يصاب في تفجير ثم يقتل ثم يذبح ثم تفخخ جثته ويرمى قرب محطة الوقود.

أرادوا من خلال هذه العملية أن يبينوا للعالم أنهم لا يحملون أي مشاعر إنسانية وباستطاعتهم أن يفعلوا كل شيء، كل شيء، جعلوا المدينة تحمل ذاكرة مليئة بالجراح وكل جرح له لون وطعم ورائحة، كل جرح له خصوصيته ودليل يمنح الناس مشاريع تأويل.

مهند السيد محسن متطوع شاب من أهل المدينة يروي ما حصل، كانت جراحه معلقة على صدره يريد الذهاب إلى المستشفى فأوقفوا سيارة الإسعاف وأنزلوه قتلوه ثم ذبحوه ثم فخرخوا له جثته ليقتل أهله معه، صار لزاما علينا ان نستمع للجميع فكلُّ يروي الحادث حسب ما رآه وإن تكرر المشهد عند الرواة، فهي جريمة غريبة على تلعفر واهلها، لكنه استراح قليلا ليأخذ شهيقا وعقب ماذا تتوقع من مرتزق يطعم أهله رغيفا معجوننا بالدم؟

كل شاب نلتقيه يكرر علينا رواية المشهد، وآلام الحكاية في مفضلها الثاني، كلُّ رواية التآريخ سيقفون أمام هذه اللحظة المتوحشة:

إنَّجِه أبو مهند راکضا صوب جثة ابنه المفصولة الرأس، لا أدري هل كان اختيار مهند كضحية أمرا معيناً مخصصاً أم هو مجرد ضحية عابرة؟ أم لكونه ينتمي إلى مذهب مخالف ولا أدري هم لأيِّ مذهب ينتمون؟ وهل كان ترشيح الضحايا من قبل الحواضن التي تعتاش على التجسس والأخبار.

سأحدثكم عن تلعفر قالها أحد أساتذتها وهو رجل وقور:

تلعفر تفتخر بهويتها الوطنية التي جمعت ولمدة قرون جميع المذاهب لتعتاش بوطن ينعم عليهم بحرية الانتماء، لدينا أساتذة جامعة وفلاسفة وتربويين يمتازون بثقافة عالية تتجاوز النظرة الضيقة للانتماءات الفرعية. و ظهور الدواعش أفرز طبقة اللانتماء وهم ناس مرتزقة لا يمتلكون النضوج الفكري والعقلي، وعشيون في كل شيء، بريئة منهم تلعفر، لو استوقفنا الآن أيِّ داعشي وأعدنا له المشهد:

أبّ يقف عبر الشارع وأمامه ابنه المذبوح والناس تصيح به: احذر سيد محسن لا تذهب إليه إنَّ ابنك مفخخ يريدون أن يقتلوك بجثة ابنك كيف سيرى هذا المشهد المؤلم؟.

دكتورة في أكاديمية الموصل قررت أن تنحت تمثالا لمهند ينصب في قلب المدينة، ليذكر الأجيال ما تعرضت له تلعفر من الأوغاد فكانت هذه الجرائم تدرك معناها وهو السعي لإبقاء مدة الكراهية إلى ما بعد الحرب ولتطول الفرقة بين الناس. لاحظ أحد الأساتذة حرجي من الفكرة: فقال نحن بحاجة لخلق مثل هذا الامتعاض كونه رفضا لكلّ فعل شائن، فالتمثال سيكون دليل إدانة كونية.

قلت: وماذا يفرق مهند عن غيره؟ العالم بحاجة إلى أن نبرز له شيء أكبر من موضوع مهند.

قالت الدكتورة فضيلة: ما هو؟

قلت: هو مهند نفسه لكن بعمقه المعنوي الذي يكشف عن لا انسانية هؤلاء القوم لان قصة مهند هي حكاية غير مكتملة، فالجزء الثاني منها أكثر أثرا في الضمير، فالقضية أكبر من قصة يرويها شاهد.

يقول احد الاساتذة: القضية نراها بعمق الحدث ليس بظاهر الروايات سنجدها أكثر ألماً، كنت لحظتها وكأني أصغي لصوت الشهيد وهو ينادي أباه: أبي ابتعد عني فأنا جسد مفخخ بالموت، إبتعد بابا أرجوك دعني أذهب إلى مثواي قرير عين، لا تحملني جرحين في قلب مذبوح، كيف لي أن ألمّ شظايا جسدك المتناثر فوقي، إبتعد أرجوك، لكنّ الأب لا يسمع إلاّ إلى نبضات قلبه، وإلى الحنين الذي يستعر

فيه، الشارع كله يناديه: سيد محسن إبتعد لقد فخرنا جسد ابنك، لكن الأبوة لها منهج آخر وقواميس أخرى لا يعرفها أهل التفخيخ، والمؤلم أنهم يكبرون باسم الله، يا إلهي، حال الخوارج يقتلون كل من يخالفهم ومن أي مذهب كان، لاجرية انتهاء ولا إسلام عندهم سوى الحرب، ما الذي حققوه وكيف نظروا إلى أب ينفجر على جسد ابنه؟ أليس لديهم آباء؟! إصرار الأب على عناق ابنه أشعرهم بالمذلة، حين يمتلك إنسان ما مثل هذا القلب الحجري يصبح خطرا على المجتمع فما نفع الإنسان إذا كان بلا رحمة؟ ولهذا اقترحت على الدكتوراة (فضيلة) أن يكون التمثال للأب السيد محسن كونه كان مخيرا بين الحياة وعنق الابن فاختر المحبة والأبوة على أن يعيش على فتات عمر يمضي وجرح القلب أكبر من الحياة.

ستنفض المدينة بروح التمثال بدم قلبه الذي سال كي يسمع كلمة «بابا» من ابنه الشهيد، إنه سيمثل نبض الحياة لمدينة أرادوا لها أن تموت، والتمثال سيمثل تلعفر بجميع هوياتها، سيمثل العراق، ومن يومها وأنا أرى التمثال يشمخ عاليا في فضاء المدينة، مدون عليه رحمك الله أيها الأب الطيب في كل مكان وزمان، الفاتحة....

بئر علّو

إنعكاس أشعة الشمس على تلك المقابر تأخذنا إلى حكايات يصعب تصديقها، لقد علمتني الفترة التي قضيتها في الإعلام إلى معايشة الموضوع حتى يصبح له مساس يتوقد في الروح يجعلك أسيرا له، لا تقدر على عزله عن حياتك، ولا أدري من أين ابتدأت الفكرة وبأيّ حديث سمعت اسم (علّو) لأتعرّف على حجم مأساته الكبيرة، كان يحدثني عن قرية (السعدة) وأنا أستمع إليه وإلى ما يرويه مفصلا من أحداث سمعت عنها وكتبت عن بعضها، فهل من جديد في قضية هزت ضمير العالم، عملية مواجهة أهل قرية السعدة ضرب بها المثل ولا غريب على أهل تلعفر هذه الشجاعة. عندما سمعت ذلك إعتدلت في جلستي، ماذا قلت؟ حين سمعت ببئر (علّو) إختلف عندي كلّ شيء، وصار عليّ أن استوقف الحكاية، نظرت عبر الوصف الى العديد من المناطق التي أنضجت الفكرة، فجوة أرضية طبيعية يزيد عمقها على أربعين متراً في عمق الصحراء وتقع في قرية (العذبة)، وتسمى (الخسفة) واتسعت الصورة في البال لترسم شكل البئر المأساوي غير الخسفة بئر اسمها (علو عنتر)، تقع قرب قرية «بكي قوط» التركمانية في مساحة فارغة غير مستخدمة كانت هذه البئر تسمى (بئر الحمايم) لأن سراب الحمايم كان يعلو البئر.

صرت أبحث عن ملامح هذه البئر، لأرى كيف يفكر المجرمون عند اقتراف مثل هذه الجرائم الكبيرة، حفرة طبيعية تقع على بعد خمسة كيلو مترات شمال غرب تلعفر باتجاه الطريق الواصلة لمنطقة «العياضية»، هذه هي مهنة الصحافة وما تحمل من عويل مكلوم ونزف داخلي لكنّها مع كل هذا الألم هي جميلة كونها مهنة البحث عن الحقيقة ومهنة مواساة الناس، صور تهز الوجدان فما أبشع أن يحمل العالم تلك الجرائم عناوين دين ويافطات فرح.

قال لي: إهدأ على الصحفي أن لا يثار بل ينقل الحقيقة بصدق وهدوء.

قلت له: هذا ما سأفعله سأكون هادئاً وأنا أنظر إلى بئر علّو، يقال هاجرتها الحمام عندما سكنتها جثث الأبرياء من عامة الشعب، وانقلب الحال صرت أنا الذي أطلب منه أن يتحدث بهدوء كي أعرف منه بعض الأشياء غير المعلنة في الصحف ولا الأخبار ولا يعرف الناس عنها شيئاً.

من أين يأتي الهدوء وهذه الجراح تصرخ في الروح، صار شغلي أن أتبع خطاه وأقرأ صمته وأمعن النظر فيما لا يقوله وأستمع الى ما يقول، فملامح الجرح قاسية وصاحبي عميق الجرح، وكأنه يريد أن يقول لي من خلال صمته إنهم قدّموا للعالم أبشع الصور الإنسانية من أجل خلق إثارة وحرب أهلية، وكأنّه عرف أي توصلت إلى ما يدور في رأسه، فالحرب الأهلية هي غايتهم، والصمت على الجراح شجاعة قال:

ماذا لو أردت أن أنتقم؟ ضدّ من سأنتقم؟ ضدّ أخي السني باعتباراه جزء من المكون الداعشي؟ لا هم يريدون ذلك لكن تأكد أن الدواعش لا دين لهم ولا مذهب، ثمّ التفت نحوي، هل رأيت بئر علّو؟ كانوا كلّ يوم يأتون إلى هذه البئر ومعهم جثث

ضحاياهم أو مدنيون أحياء يقومون بإعدامهم ورميهم بالحفرة، ثمَّ يرمون خلفهم الألقاض، قال وكأنه يعنفني:

مثل هذه الجرائم الكبيرة لا تحتاج إلى صحفي بل تحتاج إلى وجدان أمة والأمة في سبات، قلت في نفسي: رجل مثقف أجنبي وكأنه يسمع نجواي، ثقفتنا الجراح: هل تعلم أن بئرعلو تضم جثمان أكثر من (خمسة آلاف) شهيد، وجميعهم ممن كانوا يعارضون فكرة الإرهاب ورجال من الأجهزة الأمنية وموظفي الدولة ومفوضية الانتخابات وضحايا هذا البئر من كافة الطوائف العرقية والدينية ومن بينهم نساء واطفال.

ماذا يقول هؤلاء الناس لربهم، يتسم حينها وقال: يشعرون أنهم الأقرب إليه وهذه الضحايا التي يذبونها هي قرابة لوجهه الكريم، فصرت أؤمن أن بعض الجراح لاتصلح للكتابة.

أين كان الناس عنها؟ أجنبي: لا أحد يستطيع الوصول إلى بئر (علو) بسبب كثرة الألغام المزروعة على طريق البئر وفي أماكن متفرقة، وهذا شاهد آخر حي على الجرائم التي اقترفتها الإرهابيون. والمقبرة الجماعية في (الخسفة) مكان تسكن فيه طيور الحرية والسلام يتحول إلى أكبر مقبرة جماعية خلفها داعش في العراق، بئر (علو) أراها وكأنها سدٌّ من سدود تخزين المياه الجوفية، والمذابح التي دارت على حافة هذه البئر لم تستثن منها لا كبير ولا صغير، ولا انتماء لدين أو مذهب وضحايا هذه البئر كما يقول صاحبي أطفال ونساء وشيوخ، فهذه الحفرة أصبحت شبه ممتلئة بجثث الأبرياء، ومن جميع مكونات الشعب العراقي، وكان يرمي التنظيم الإرهابي أغلب ضحاياهم وهم أحياء.

سكت برهة ثم قال:

هل فكرت كيف سيتم فحص كل هذه الجثث وتحديد هوية أصحابها، لابد من استخراج الجثث ودفنها وتوثيقها عالمياً.

بدأت أكتشف أن للجراح عيوناً، ممكن أن تريك عمق الجريمة ومغزاها فحتى الرقم المعلن لم يكن صحيحاً وإنما عدد ضحايا بئر علو أكثر من (خمسة الاف) ضحية وعلى طوال هذه المدة كان الدواعش يتبجحون أنهم لا يقتلون الأطفال ولا يعذبون بالنساء و(بئر علو) كشفت زيف هذا الادعاء، ماذا لو نظقت البئر؟ وأغلب العراقيين اليوم يعتقدون أن جريمة (سبايكر) من أكبر الجرائم لأن جرائم البئر مختصة بسكنة أهل تلعفر بينما سبايكر كانت ضحاياها من جميع محافظات الوسط والجنوب، يا إلهي، كم هو الجرح عميق بعمق تأريخ العراق، ماذا قدم الدواعش لبلدانهم؟ وألا تحجل تلك الفضائيات حين تسمي تلك الشرادم دولة إسلامية.

قال لي صاحبي قبل أن أودعه: ان الكثير من المنظمات الدولية رفضت فتح البئر وأعلنت أن الأمر يفوق إمكانياتها، عليّ أن أعتذر لصاحبي فلم أكن أعلم أن عائلته بكامل أفرادها ضحية هذه البئر، قال:

أنا أحلم أن أستخرج جثمان أبنائي لأدفنهم بيديّ.

ماذا لو فتحت البئر؟! هل نقدر أن نتعرف على ضحايانا؟ وقاع البئر عميق جداً، ومظلم تماماً ويحتوي على مياه محاليل وغازات وأمور أخرى، ولم يستطع بعد أن أخذته غمرة البكاء أن يحدثنني، ومضى دون أن يتكلم بشيء، قلت له الله معك لكنني خجلت أن أقول له البقاء في حياتك.

الحاسة السادسة

كان الجميع يعرف إمكانية حاستي السادسة التي ساعدتني على اكتشاف أمور كثيرة، أقرأ أحداثا لم تلد بعد وأعرف أموراً لا واقع لها، ولذلك كنت أحذر أن أقول ما أعرف.

أنا كنت طبيب المنطقة، كوني مضمدا قديما متمرسا وأنقذت الكثير من الحالات التي يمكن معالجتها في العيادة، ولا فرق عندي بين مريض ومريض، واحتراما لعملي كان الجميع ينادينيّ دكتور أحمد، وهكذا حصلت على محبة الناس وأضف إليها كوني سيدا (موسويا) يتبرك الناس به وبيئته، وأطالبهم بأجرة بسيطة كي لا أرهق المريض، وكنت دائما أسألهم خشية أن لا يمتلك أحدهم اجرة الدواء، وأذهب إلى بيوت بعض المرضى الذين يصعب عليهم الحضور إلى عيادتي، فالناس لبعضها كما يقول المثل، وقتي كلُّه مبذول للناس وفي المواقف التي تراود أحاسيسي عبر الحاسة الملتهبة، لا علاقة لها بقضية التعامل مع الناس، لكنها تهدم ما بداخلي أشياء كثيرة أفقدها منها الفرح وروح التفاؤل.

بدأت أفقد كلَّ شيء، نظر الأهل والأصدقاء إليَّ نظرة مريبة كوني كنت قلقا
يوم سقوط الطاغية، الناس تعبر عن أفراحها كونها تحلم بالخلاص، أسمع قهقهات
الفرح وأهمس بأذني ليت الأمر يدوم.

يفاجأني احدهم بقوله: ما الذي تخاف منه؟

أنا اعرف الطغاة وكيف يفكرون وكأني أنا الوحيد الحزين الذي يدرك ما
سيحدث عن سقوط الطغاة، تعودت أن لا اكشف هذه الأحاسيس كي لا أتهم
بأمور أنا في غنى عنها، لكن مع هذا تتوالد عند الناس وخاصة كبار السن بعض
المخاوف التي تشبه مخاوفي، كلُّ شيء تمام ما دام أهلنا بخير وتلعفر العظيمة بخير،
مع أنني أحسها ستكون يوما ما مأوى للشراذم البعثيين والهاربين من أطراف المدن
ومن فدائي صدام.

لكن لا بد أن أحذرهم فالوجوه الغريبة بدأت تتوافد على تلعفر والبعض صار
يكرر السؤال: ما الأمر يا أبا شهاب ما الذي يقلقك حتى صار فرح الناس عندك
مقلقا ونحن نحلم بالخير والحرية، ألم تكن أمنية الشعب إزاحة نظام استعمر كلَّ ذات
الى العبودية والرفاقية الزائفة، حتى الجيش بدل أن يخدم الوطن صار يخدم الطغاة.

كثرت اجتماعات أهل المنطقة بباب عيادتي ويبدو أن الثقة بالحاسة السادسة
غير مأمونة الصمت، وخاصة حين تبرز على الساحة أحداث تدفعني إلى بداية القلق
حين قام الشباب بتشكيل مجاميع قتالية تحارب الأمريكان، أنا أدرك بهجة المطمئنين
الأقوياء، تلعفر لا يمكن لها أن تقبل بمحتل جاء بحجة التحرير. فقلت: إحذروا
اللعبة وكونوا على يقظة من الأمر.

أجابني صوت فتى: عمو أحمد هل أنت تحب الامريكان، أمريكي أنت؟ هؤلاء المجاميع التي تقاتل اليوم الأمريكان أخشى أن تنكشف غايتهم لتبرز هوية أخرى، وكان اغلب الشباب متحمسا للقتال، للثورة، للتعبير عن الحرية التي فقدوها سنوات طويلة، صرت أسمع الرمي في المدينة هنا وهناك، إياكم أن تضيعوا قدرات تلغفر، إياكم، إذا أهدرتم قدراتها أصبحتم واصبحنا مساكين، وقوتنا الحقيقية أننا أهل تلغفر وناسها وألفتها والجورة المترابطة والأخلاق.

يسألني ابني: بابا ماذا تعني الحاسة السادسة؟ يبدو أنها تسربت عبر مزاحات الأصدقاء: قلت: يعني أن ندرك سعة الجرح كي لا يكبر، وكنت أحدث الشيخ (هاشم عنبر) عن مخاوفي فأجد لديه استجابة بعقله الكبير وسعة حلمه جعلته يشاركني القلق، وكنا نتدارك الأمر كي لا نؤخذ على غفلة من أمرنا، أدرك قلبي الأحداث قبل وقوعها، وعرفت معنى وجعي والأوامر قد تغيرت وصارت عبارة عن تصفيات وقتل، صارت تشمل كل مترجم يعمل معهم، بدأ الصمت الذي بداخلي يتسرب ليصير هذيانا موجعا، وبدأت أحدثهم عن مخاوفي بعيدا عن لغة التخمين لأن الحقائق بدأت تكشف نفسها: احذروا المكيدة لأن تجمعات فدائي صدام أخذت تكبر.

لم يعد أحد يصدق أنهم يقاومون الأمريكان، كانوا يتحدثون بلغة التأريخ: أبا شهاب نحن شعب عريق لا نقبل بالاستعمار.

قلت هؤلاء: أنا أخشى عليكم من استعمار أنفسكم، انها لعبة أمريكية تلك التي حولت فدائي صدام إلى مجاهدين، وما هذا الشد والجذب إلا لعبة دامية تريد

أن تقتل النبض الثائر فيكم فالآف القذائف تضربها القوات المحتلة دون أن يسقط مقاتل واحد من المجاميع التي صار اسمها داعش، كنت أعالج الجرحى من المدنيين وأنا اسمع فوران الحماس الوطني عندهم يكاد الدم الذي ينزف عند الناس يقتلني، فهو ينزف في القلب، وخرج الإرهابيون بشكل علني واستلموا زمام قيادة المدينة.

ماذا قلت فاهموني بالتشاؤم والهلوسة؟! تغيّر الأمر فصارت تلك الهلوسات (هاي شارة السادة) وعلامة من علامات وجوده النير في المجتمعات كنت أسمع تلك التحليلات وخاصة عندما صارت الأحداث حقيقة، الناس ذهلوا وتفاجأوا أمام هجوم منظم ضد محلة (القلعة) ضد ناسها، ضد أهاليها وليس ضد الأميركيان والمترجمين، قتلوا أطفالا صغارا وبكل وقاحة فخخوا جثثهم ولإذا بالأمريكان هم الذين صاروا يدافعون عن الناس ضد المجاميع الإرهابية، ظهر العفن الذي في رؤوسهم وتحولت مواجهاة الأميركيان الى قتل أطفال الشيعة، نعم هم يتحدثون بالهوية بهذه الصلافة لهذا رفض كبار شيوخ السنة هذا المنطق.

تلعفر مجروحة رقصت فوق صدرها عشرات المجاميع، القذائف، الطلقات، عشرات المذبوحين، رؤوس بلا أجساد، وكثر الذبح في تلعفر، والأخبار تجعلنا في قلق، ريمونت التفجير لا تعرف متى يصرخ والموت فيه وضد من لا تدري، أصبحت القرارات قراراتهم ما كانت تلعفر يوما إلا لحمة واحدة يقولها أحد الشيبة أنت اصدقنا ثم يضحك، كل أجواء الموت والقتل والتجمعات التي صارت علنية لن تنال من براءة المواطن التلعفري، يا إلهي، ما أقرب الأفق بين يدي الدعوات ليس في تربية أولادنا هذا القتل إنهم مجاميع شاذة جاءوا بثوب آخر وبلغة أخرى أكثر صفاقة، والأحزمة الناسفة شكّلت الفاجعة الكبيرة فصار الجار لا يأمن على حياة

جاره يحرص عليه ويخاف منه، والانفجارات المزدوجة هي عشق هؤلاء القتلة خلال هذه الأيام صرت أعرف كيف يفكرون ويبدو أني أصبحت صاحب خبرة تحليلية شكّلت خطراً كبيراً عليهم ولذلك وضعوني في حساباتهم بعنوان (مثير شغب) توجد هناك جماعات أدركت معناها إنهم يحاربون الوعي الشعبي والشباب السنّي انخدع مثل ما انخدعنا ببعض شعاراتهم ولهذا صاروا يتعجلون تنفيذ التفجيرات والتفخيخات والجرائم خشية أن يثور السنّة ضدهم عندما يكتشفون الأمر، لم أتمكن من النهوض فكان كلُّ شيء فيّ ينزف بشدة، يبدو أنهم أصروا على قتل هذه المدن.

أنا أنزف والمستشفيات غير آمنة يذبحون كلُّ شيء، لكن لا ملاذ سواها لم يبق في تلعفر سوى الموت وأنا في المشفى تساقطت عليّ الاخبار الموحجة.

فقد أخبرتني ابنتي وأنا على سرير الجرح بمصابنا: بابا قتلوا أمي.

بابا قتلوا أخي، بابا قتلوا كل أبناء عمومتنا.

قد استشهد ستة وعشرون شخصاً من أقاربنا.

بابا عشرات الشهداء وعشرات الجرحى حينها نشرت صوتي على رواي تلعفر،

اين صوتك يا شيخ هاشم عنتر؟؟

أنت الحر الأبى شريك حاستي السادسة فيجيوني هؤلاء ليسوا بشرا، أنادي عليهم حرام قتل المسلم لأخيه المسلم لكن لا لغة يفهمونها سوى لغة المتفجرات والأحزمة الناسفة أناديهم ولا من يسمع يا أبا شهاب هؤلاء مرتزقة إرهابيون وأغلبهم من السفلة عديمي التربية، هؤلاء أذئاب الحزب المنهار ورؤوس فارغة دون

معنى، أصوات علنية صارت تطالبنا بالرحيل أخرجوا من تلعفر فلا مكان للخونة.

أقول للشيخ هاشم: صرنا نحن الخونة، بدأ الحصار على الغذاء وعلى الماء وعلى مراجعة المؤسسات ولم تنزل الأحداث تشير إلى ما هو أسوء فسيارات محملة بالمجاميع تدور حول الشوارع تهدد بشكل علني وتطالب الشيعة بالرحيل اصطدمت الحقائق مع البعض اكتشفنا عند نزوحنا بأن الصراع لم ينحسر على الطائفية إنما هناك نزعة عنصرية واجهتنا بالأم.

حاربوا صيامنا أخرجونا من محافظة دهوك عنوة، وفي المجمعات كان هناك الموت والعطش وأخيرا خرجنا.

الله يا أهلنا في الوسط الله يا أهلنا في الجنوب أنتم الكرم والطيبة وأهل الفضل، فالمساعدات تأتينا من كل بيت وفتحوا لنا الحسينيات والبيوت ووزعوا علينا الغذاء دون مقابل هناك وشائج مترابطة بين الطائفية والعنصرية، لكننا في محافظات الجنوب كُنَّا عند أهلنا وأنا فتحت عيادتي في محافظة النجف وبدأت أعمل لأسعف مرضى النازحين.

كانوا يسألونني ما الذي جرى فأحدثهم عن الذي سيجري، انتبهوا شهداؤنا لن تسكت.

سرديب الذاكرة

الجراح السحيقة بكل مديات الحروب ومظاهر الإبادة الإنسانية تحت أيّ مظلة
زمنية تراكمت جراحها حمما تصدع القلوب، وتفرش تلك الأهات جراحها مياديننا
في كلّ قلب، لتتوج تلعفر اليوم بحزن أم فقدت وحيدها في اللا حرب، يهز الصحفي
رأسه جاء ليجري معي لقاءً.

وجّه لي العديد من الأسئلة وهو بانتظار أن أجيبه عنها، وأنا رجل مليء بالأسئلة
مذ كانت تلعفر ما قبل التأريخ جزءاً من الدولة (المنيائية) هناك ذبحوا ابني الوحيد
الذي ظلّ ينزف إلى العهد الآشوري تحت قلعتها الأثرية (نمت عشتار) الرومان
وجددوا قلعتها على جثث (الحوثيين)، ربما هذه التواريخ لا تهمه وما يهمه هو
الحديث عن الحاضر المقهور، يريدني أن أحدثه عن جرحي أنا، فقدان ابني الوحيد،
ولا يدري أن تلك الحقب الزمانية هي جزء من ولادة جرحنا اليوم، عند احتلال
تلعفر من قبل الدواعش نقلوا مقر الدولة إليها، هذا عمل ليس كفيي ولم يكن من
متطلبات العسكرية وإنما كان سطوة من سطوات التأريخ لأن تلعفر وفي مرحلة
انهزام الخوارج نقلوا دولتهم إلى هنا إلى تلعفر بعدما أنهكتهم الحروب، واليوم فكروا

بالعودة عبر الدواعش ومروا عبر تاريخ مليء بالدم.

أتخيل صورة ابني عبر هذا التاريخ، خطفوه من قرية المزرعة وأخذوه إلى مدينة الموصل، وربطوه في ريعان قوته ربطا محكما وعلى الطرف الأعلى من جسده المدمى بلهات السياط، وكلُّ سوط يحمل سمات عصره يجلدون به مَنْ يعتبرونه أسيرا، تركت السياط في ظهره خطوطا زرقاء وخطوطا حمراء نازفة في بقايا جسده المدمى، الجلاد اللاآدمي الذي يذبح رأس ابني في كلِّ عصر يتلذذ و مَنْ حوله يعبرون عن إعجابهم بعملية الذبح، أعتقد إنه يشبه (سيداغو) احد الطغاة الذي حكموا تلعفر قبل تسعة قرون وما زال هذا الطاغية يتنفس فيهم الذبح برقاب هذه المدينة لیتملك أرضها وناسها وليرثها برأس مذبوح إلى (الإيلخانيين) الذي ذبحوا التاريخ و(الجلالريون) أذبح ولدي الوحيد اختطفوه من قرية المزرعة وأخذوه إلى مدينة الموصل.

روعتني حادثة اختطاف ابني كثيرا فصرت أراه بصور شتى ومشاهد مختلفة تجتره ذاكرة المدينة وتاريخ أساها من حقبة إلى حقبة وولدي يتعرض إلى حادثة الاختطاف، صرت أراه مصلوبا على جذع نخلة مذبوحا من القفا، وتارة أراه جسدا ممزقا منشورا على أعتاب التواريخ، يقال أن الأمير (حسن بك الطويل) قائد دولة (قره قوينلو) الذي أسس دولة (الخروف الأبيض) تأملت فيه خيرا قلت عساه ينقذ ابني من برائن الذبح رأيته هو الآخر يستخرج ولدي من سرايب الذاكرة المفجوعة، التي رسمها طغاة القرون، أنا لست أهدي يا ولدي هو التاريخ كله عبارة عن هذيانات مقينة تداخلت بالأزمة لتنتج لنا داعشا بهذه الحماسة.

يمرُّ في ذاكرتي داعشي يجلس على جسد ولدي يمزق فيه قفار تلغفر إلى نواحي وقرى ومدن يجمعون فيها شباب تلغفر ليصلبوهم أمام أنظار عوائلهم، تتساقط الدموع من عيني دون أن أبدي حراكا ولو تقدمت خطوة واحدة سأنال أضعاف ما ناله ابني من الضرب المبرح وقررت أن أتقدم إليه، كلما أتقدم خطوة ابتعد عنه.

يا إلهي، شوَّهوا حتى الخطوات حاولت بعدها أن أصمَّ أذني عن فرقة الضرب لكنَّه يعيش بداخلي هذا الصوت، كان (الأمير بك) يكشر عن أنيابه فرحا كلما رأى دمعة ثخينة على خدي المعروق الذي أهزله الوجد ليتلذذ برؤية الضحيتين معا الأب والابن، فصار يفنخ جسد الأبناء ليقتل الآباء.

لوحات مغرقة بالحزن عاشتها تلغفر وهي ترى أولادها يذبحون من جيل إلى جيل، ومن تأريخ إلى تأريخ، وأنا أجول بكلِّ تلك الأزمنة أنادي الغوث لاتذبحوه إنه ولدي، والأمير بك يشبخ على الأزمنة ليصير تارة صفويا وتارة عثمانيا وتارة داعشيا وفي محاولة هروبه الناجحة استطاع أن يهرب من تلغفر حاملا معه رأس ولدي.

تبرز المعالم أكثر وضوحا وتتجلى عناوين كل حدس، هو أشد تعبير من الذي قبله، ثلاث سنوات والإنكليز يقاتلون بعنف من أجل أن يحرروا رأس ابني ليذبحوه، لماذا يُذبح ولدي؟ ما الذي جناه على مرِّ التأريخ، الى الآن لم أعرف عن ولدي أي خبر، ولا حتى القوات الأمنية عندهم معلومات عن المذبوحين من قبل الدواعش، لكنني أعرف كوني ابن تلغفر إنَّها قدّمت للتأريخ ثورات تحررية فهي التي قدّمت الملحمة الشهيرة، والتي عرفت باسم حركة (قاجقاج) فكانت أول شرارة لثورة ١٩٢٠، أنا

كنت هناك ابحت عن رأس ولدي ويبدو أننا بلدة مفجوعة في كل الأزمنة، وكانت داعش تستهدف الأبرياء بشكل خاص تبحت عنها، وفي زمن صدام كانت الدوائر الأمنية تقتل الأبناء بعدما تعذبهم وتسوتفي ثمن الرصاص من أهاليهم فكم كانت القضية مهينة، وكانوا يثرمون أجساد السجناء ويرمونها لحيواناتهم، القضية بمعناها أبعد من حدود الموت، قتلتموه أعطوني ابني لأدفنه وأرتاح وترتاح أمه فنحن لسنا أول عائلة تفقد أولادها حتى لو كان جسداً مفصولاً عن الرأس نحن نخيطه فندفنه، كي أكون بمصاف الآباء الذين يدفنون فلذات قلوبهم، الله يساعد قلوب الأمهات، رحلت أبحت عنه، غربلت الأزمنة، أبحت عن جسد ابني، قضيته تُحفر في سرايب ذاكرتي المجروحة، والخطوط ذاتها التي رسمها الطغاة عبر القرون في جسم الإنسانية الحزينة وابني لم يسقط في وهداد أفكارهم وأصولهم التنتة، الصحفي ينظر إليّ بعاطفة الإنسان، ربما آذاه الجرح الثرثار الذي لا يسكت.

سأحاول أن اختصر الجراح، ابني شاب طالب إعدادية في السادس إعدادي قاموا بخطفه في ١٩/٥/٢٠١٧ ميلادي خطفوه من قرية المزرعة، أوتهم تلغفر، أسكنتهم بيوتا تضمهم بعد أن كانوا سارحين في الفلا والبراري مثل الوحوش، أطعمناهم من قوت أولادنا، لو تبحت في رأس ابني لم تجد لهم مكانا فيه، عدو غير متوقع، لم نحسب لهم حساباً هم جناة ونحن لسنا بأمريكا ولا نحن بالترجمين لأمريكا ولم يعمل ابني لحساب الدوائر الأمنية، فهو طالب في الصف السادس إعدادي ألقوا القبض عليه في المزرعة في القرية التي أكرمتهم وأكرمت ضيافتهم واشبعناهم بعدما أكلهم الجوع أغلبهم من فدائي صدام وممن هربوا من مدتهم مخافة أن تطالهم يد

الحساب، الدم الذي يجري في عروقنا نحن أهل تلعفر يختلف عن دمهم المجبول بالجريمة والقتل، ابني لولاكم لكان الآن طبيبا.

كنت كلما أمرُّ قرب المستشفى أسأل عنه، أنظر لبنات الجيران والأقارب ابحث له عن زوجة وكنت أريد أن أزوجه أجمل فتاة في المزرعة كي يطلع احفادي، أجمل أحفاد في الكون، لكن هذا هو الحال الجيران لايتكلمون أمامي عن أبنائهم ولايتحدثون عن خطوبتهم وعن أعراسهم خشية أن تنكأ الجراح في قلبي، يخافون على مشاعري يتكلمون عن أعراسهم بهمس وأنا حقيقة أتمنى أن تزيد الأفراح عند الناس وكانت تلعفر تكفي لأفراحنا لو كانوا بشرا، غرائز الامتلاك تجعلهم بلا ناس سوى المروق، لقد منحوا الأهالي الأمان وخانوا أمانهم؛ نوبات عنف مذهلة، يميلون إلى الذئبية والتحكم في مسار الخليقة، يطربهم انين الناس ويسعدهم منظر ام تبكي أولادها، لا قيمَ عليا لديهم سوى قيم الذبح، يقول أبٌ فقد ابنه مثلي في حديث على مائدة الجراح اكتشفت أن الحياة لديهم كذبة كبيرة الدواعش يصلون كما يزعمون كلَّ الأوقات ويصومون ويبتهلون إلى الله وهم يغايرون روح الشريعة وجميع الشرائع لا تمسَّ القلب إلا إذا تجسدت في سلوك اصحابها، وهؤلاء لا يقدمون سوى المهازل وكأنهم طواويس يجوبون المدينة وأولادنا لا قبر يحتويهم، يرحلون بلا ماتم أو مجلس فاتحة، رسالتي الأخيرة لهم إن كنتم على دينٍ أعطوني جثة ولدي كي أدفنها بأمان.

أنا سُني

قالها والمرارة تتسرب من داخله وتجعل من كلماته جراحا تنزف، الشهادة في زمن الجراح تقى، ومع كل شهادة حرب أكتشف أشياء جديدة وحقائق أعمُّ وأشمل، وكلُّ واحدٍ ممَّن شاهد وعاش الأحداث له قصة ومُحور قد يختلف عن غيره، وقضية الماضي قضية انتهت لكن ليس كل الماضي يزول من الذاكرة.

قلت له أنا أصغي إليك.

أجابني: الإصغاء مسألة جيدة وهو فعل إنساني مثقف، لكنك لا بد أن تفهم القضية بكلِّ محاورها، شعرت بنفسني لحظتها إني امام معلم، ورجل تربوي قضى العمر في التدريس، ليس المهم الأسماء كما يقول هو المهم الأحداث.

إبتسم لي قليلاً ثمَّ حدَّثني بهدوء: هناك خيوط لامرئية تحتاجاً تمنحك مغزاهما، والناس في صراع والصراع أشياء وأفكار متناقضة وكل طرف له قناعاته ووسائل تفكيره، منه مَنْ يغوص إلى أعماق الواقع ومنه مَنْ يأخذ ظاهر المعاناة، البعض يقرأ قضية تلعفر على أنها صراع طائفي بين الشيعة والسنة، طيب أنا رجل سني هل يعني انا داعشي، القضية تتمحور على مرتكز واحد لا بد ان يستوعبها الناس من خلالكم،

وكأنه يريد أن يشجعني على مسألة وهي أن أعي القضية بجميع الأوجه بحسب تعبيره.

تنظيم القاعدة الإرهابي أسس أجندة خارجية، وأستعين بهذه المعلومة من حقيقة وجودي وأنا ابن قرية (أبو مارية) بثقل وجودي الاجتماعي وأنا وسط المعاناة ولكوني إنساناً أشارك في صنعها أحيانا وكثيرا ما هي الأحداث التي تصنعنا، وتلعفر ملجأ الروح والجسد، الذي يميزنا أننا في تلعفر أهل نتمتع بألفة روحية، واولاد لحمة وطنية شهد لها التاريخ، والمشكلة أننا كنا محسودين على هذه الروابط الإنسانية التي تعزز هويتنا وتشدُّ أواصر وجودنا، وكان يكرر دائماً في حديثه إنتهه إليّ اجعل ذهنك عندي، لا بد أن تدرك، مصطلحات يتعامل بها المعلم ليرسخ المادة في ذهن تلميذه ولكي لاتصله المادة مثلومة، المهم أنه استطاع أن يشدني إليه.

يسألني: كيف يستطيع الطغاة تشتيت وحدة الشعوب، لا بد من التشتيت كي نفقد لحمة المواجهة وهذا شأن الطغاة أينما كانوا فنانابليون بونابرت يعلن للعالم اسلامه ويدافع عنه ضد المسلمين، وأصبح الدين هنا ليس جوهر ايماننا بل لعبة سياسية، يريد منها المستعمر التوغل داخل بنية المجتمع وداخل انتمااته لتهديم الأواصر، وخلق نعرات طائفية وصراعات موت.

وسألني: هل استوعبت الموقف لهذا الحدّ، هل تريد أن أعيد لك ما قلت؟ أجبت: مفهوم أستاذ والكلام واضح، لكن الذي أعرفه أن الناس في تلعفر رحبت بالدواعش.

أجابني: نعم، وكان الترحيب شعبيا دون استخدام رمزيات انتهاء، هل هناك من يرفض السير على خطى النبي ﷺ.

قلت: طيب أستاذ، قاطعني وقال: دعني أكمل وبعدها إسأل ما تريد:

الآن القضية معلقة، عرضنا جانب وتركنا جوانب أخرى مهمة، تبين أن ليل الدواعش يختلف عن نهارهم المتدين زيفا، أنا لا أريد أن أقص عليك ما حدث بل أريدك أن تفهم ما حدث، هؤلاء خدعوا الناس، والناس كانت تجمع لهم التبرعات.

سألته: التبرعات؟

قال: نعم التبرعات، كان الناس يجمعون لهم التبرعات على أساس استهداف الأمريكان والمعاشية مع وجود هذا الجمع الغريب كشف لنا الواقع الحقيقي والمكون الأساس والهدف الرئيس، صاروا مرتكز دفاع للرتل الأمريكي ويضربون الرتل العراقي، ويعتدون على الجيش الوطني الذي هو درع للناس، لأنهم أجندة خارجية استهدفت العراق.

قلت مع نفسي: إن الحديث جميل وشيق وأخذ يسير في أكثر من اتجاه، أستاذ وموجه عقلي كبير يعرف كيف يمتلك مشاعري منذ أول كلمة ومنذ أول شعار لكن تبقى هناك أشياء لا بد ان تُناقش كي ينجلي عنها الغموض.

قال بحرقة: إنهم أبناء شوارع، لا دين لهم وجاءوا ليعلمونا الدين الذي لا يعرفون شيئا عنه.

قلت: ربما كان هناك ميلان مذهبي ولا نقول عنه طائفا عند الناس، فداعش لم يرحب به من قبل الجميع.

أجابني: أنت تحاورني على تجربة المعقول النظري، وأنا أحدثك عن تجربتي، كلنا انخدعنا ولا نحتاج إلى موازنة تفسير، سأحدثك بالدليل لقد قتلوا الشيخ (مبارك آل يوسف) وكان هذا الشيخ يستلم مقاولات إعمار المدرسة والمستوصف. والدواعش أرسلوا عليه، ماذا يريدون منه برأيك؟

قلت: لا أدري لكن أكيد يريدون منه أموال المقاتلة، وفعلا طلبوا منه نصف أموال المقاتلة، وكان رد الشيخ بطوليا، إذ أعطاني الكثير من الدولارات أوزعها على الفقراء، فاجتمعوا عليه في اليوم الثاني وسط المركز الصحي، قتلوه وهم يهتفون: (الله واكبر).

قلت: أستاذ، لكنهم كانوا يمتلكون معلومات كاملة، فمن هم هؤلاء الذين زودوا الدواعش بهذه المعلومات، أجبني بشيء من الانفعال، هؤلاء خونة وهم عبارة عن سقط المتاع، لا يمثلون سنة تلعفر.

قلت: لكن الخيانة بهذا الظرف موجهة، أكمل الجملة: نعم، وقتلوا منا الكثير، عندما تقف امرأة وتصرخ مستغيثة بالناس يهب لها الناس لمساندتها، وإذا به كمين لا يفرق بين شيعي وسني، وهناك أشياء اود أن أتأساها، مأساتنا كبيرة.

سألته: أستاذ، وهل ممكن نسيانها أو تناسيها؟

تريد مني أن أتحدث بالتفصيل، وربما ستقول مع نفسك: إن تلك الحوادث كان يتم اختيارها في المناطق الشيعية، وأنا أُجيبك إن المناطق السنية تمَّ تفجيرها من قبل الأمريكان، وأنا بعيني رأيت مدرعة أمريكية قصفت الدور التي يقطنها السنَّة في منطقة (العين) بتلعفر، ليقول الناس إن الشيعة اعتدوا على بيوت السنَّة، إنها لعبة حقيرة ليس فيها رائحة انسانية اطلاقا، فمن المؤكد أنك تحتاج إلى تفاصيل ومعلومات موثقة ومعلومات موثوقة، وأنا أسعد كثيرا عندما أشعر أنني استطعت أن أجلي الغموض عن موضوع شاء الأمريكان أن يكتبوا سيناريوهات مموهة لدس معلومات تزيد الفرقة بيننا.

فأمريكا تضرب بيوت السنَّة كي يثاروا ضد الشيعة وتدعي داعش أن الشعب معها وجاءت لتنصف المظلومين، لذلك أشعر بالسعادة أن أكشف المؤامرة للناس.

فلماذا؟ القسوة الداعشية ضد قرية (أبو ماريا) مع أننا ناس لسنا شيعة والمفرح بالأمر ليس بيننا سلفي واحد أو أي شخص تأثر بالسلفية، ولا عندنا (حنفي) فنحن مذهبنا (الشافعي) يقولون عنا نحن (سنة الشيعة)، نحن نحمل راية الإسلام المحمدي المجبولة بمحبة أهل البيت عليهم السلام.

سكَّت لحظة ليمهلني لحظات يعرف من خلالها مدى تأثري وأنا أختلس النظر إليه، بدأت انفعالاته تكشف لي صدقه وصدق أحاسيسه، ويبدو أن موضوع خلط الأوراق عند الناس مؤذي جدا لأهل الوعي والثقافة، وربما يتصور في قرارة نفسه أنني لست كامل الإيمان بما يقول أو يشعر.

إن الكثير من الغموض يحتاج الى توضيح الأمر، وإلى حقائق، فهجوم داعشي عنيف ومتواصل على قرية سُنية، تمتلك أربعة آلاف شاب، والدواعش يعتبروننا ثروة بشرية، وكانوا يعقبون دائما (لو كنتم معنا لفتحنا إسطنبول) وأنا أستمع إليه كنت أكرر نعم، الله يساعدكم، لأصل إلى جذر الحكاية وما يسميها الأستاذ الرسالة، يريد أن يعبر عن استهجانه مما يسمع أن داعش سُنية، وفي حقيقة الأمر لا جذر لها إلا عند بعض الأغبياء ممن خانوا الوطن، أنا أبي متحدث من كبار المتحدثين، ومن بيت كلهم علماء ولدينا ثلاثة خطباء، لذلك هجرونا وسجنوا رجال الدين ثم أطلقوا سراحهم بشرط التعهد بالرحيل، الآن صرت أشعر أن الأستاذ المربي بدأ ينزف جراحه متأثرا.

يتوقف ليمهل تلك الجراح الراحة وأعتقد أنه يحرص على أن يسيطر على نفسه كي لا يبكي.

فقال: اليوم وبعد أن نجونا بحكمة الله لا بد أن نصف الناس لمواقفهم، والذي رجل كبير السن بلغ عمره ثلاث وثمانون سنة، مصاب بالسكر المزمن لدرجة الأولى ويعاني من أمراض أخرى، الضغط وانسداد الشرايين وسوفان في قدمه، لكنه فضل هذا التعب على الرضوخ لهؤلاء القتلة، فضل الموت على أن لا يمس أولاده دم إنسان، نزحنا وأذى النزوح ولا أن نبقي نعيش العمر بضمائر مثلومة، هل تعرف معنى أن تترك بيتك للغرباء، وتسكن أنت وأهلك بالمخيمات، كل إنسان يتذكر فرحة أن يكون له بيت واذا بالفرحة تنتزع من جذورها، وحتى النزوح لم يكن فكرة مأمونة لأن الصراع أكبر من طائفي فهو عنصري قومي أيضا.

أهل بيدي طفلتي البالغة من العمر خمسة وعشرين يوماً، الجو حار وأنا أمشي خمسة وأربعين كيلو متر أبحث عن لجوء آمن، توجنا النصر بعودتنا الى تلعفر مرفوعي الرأس وكل تلعفر استقبلتنا، كل تلعفر دون استثناء دون استثناء أي هوية حتى من الهويات المطعونة بالانتماء.

دعني أقول لك كلمة، وسكت وهو ينظر إلي وأنا أنتظر تلك الكلمة التي ستتوج هذا الانثيال:

نحن طعامنا ملح أرضنا، ونحن جميعنا أهل ليس هناك بيت سُنِّي هدمه الشيعة ولا هناك بيت شيعي هدمه السُنَّة، داعش هي من هدمت وعندما أقول داعش أعني الأمريكان، الجرح ما زال كبيراً يا ابن العم فهناك الى الآن من يتحدث عن تلعفر بأنهم عرب وتركمان أو يقولون إنهم سنة وشيعة وأيزيدية، نحن أهل تلعفر بيتا واحدا نتقاسم الأكل والشراب نحن ابناء الدين، نحن السنة اليوم نقف باحترام للدرس الذي تعلمناه من المرجعية المباركة والعتبات المقدسة التي آزرتنا في المخيمات وآوت الكثير من العوائل دون النظر إلى فرعيات الانتماء المذهبي وإنما نظرت باتجاه النظير الإنساني، قدّموا رجال المرجعية والعتبات الأرواح كي يصلوا إلينا دون أن يفرقوا بين سني وشيعي، بين مسلم وأيزيدي، توقف الأستاذ عن السرد وودعني بايلاء ومضى ربما تعب، لا أعتقد أو ربما خشي أن يزرع فينا الملل لو طالت الانثيالات أكثر، لكنني اكتشفت عبر ومضة خاطر أن الرجل ما خاف الموت يوماً لكنه خاف ان تهتك دمعه فيموت.

كرة قدم

الجراح الكبيرة تأخذ الإنسان الى كهولة مرعبة، وأحيانا تنقاد إلى طفولة يانعة في أحضان ذكريات مفعجة، تترسب الذاكرة عند هجرة الحنين، لا أحد يريد أن يسأله عن الحال فهو يحمل ذاكرة معطوبة؛ طالما ظنّوا به «الخبيل» أو ما اشبه بالوجع الذي يحرف الفكر ويقوّض التفكير مثلا وسط الوجع الصارخ في أعماق الناس، ربما دهشة الموقف وقوة التحول من واقع إلى واقع أدهشته، هنا الناس يختلفون كاد أن يصل بهم الحال إلى نزاع بين العوائل على مَنْ يأوي النازحين.

قرر أهل مدينة الحلة الإيواء حسب خيار النازح، وصار حصّة كل بيت أن يأوي عائلة من عوائل النازحين، رجل بعاطفة الدين والأخوة أسكن عائلة (السادة) في بيته الواقع في شارع ستين وقسم البيت معه نصفين، قدّموا له الطعام والمأوى ورأفوا بعوقه، فكانوا دائما يسألونه عن حاجته، أطرق رأسه ارضا فقال الحاج إبراهيم لا تحجل إن بتروا قدمك، نجعلك تمشي على رؤوسنا، مهما كان الطلب صعبا أوفره لكم فنحن عاهدنا (الإمام الحسين عليه السلام) على أن لا يبقى نازحا يدخل مدينة (الحلة) إلا ونفدنا له كلّ ما يحتاجه.

نظر إلى أهل الدار نظرة استحياء، فقال: أريد كرة قدم، ربما مثل هذا الطلب أدهش الجميع، ومع هذا تقبلوا الطلب على أساس انعكاسات الألم النفسي والعوق وهذيانات الجراح، أخذ الفضول الحاج إبراهيم وأهله فصاروا يريدون معرفة حال المسكين وما عانى ليصل مع كل هذا الجوع والألم ولم يطلب لا ماء ولا طعام وانما طلب كرة قدم ليحتضنها بشوق جراح توظف الأئين، وصار الناس يجسدون الحاج إبراهيم لكون العائلة النازحة عنده من عوائل السادة الموسوية.

تقول زوجة الحاج إبراهيم: حاولت ان استدرج زوجته «العلوية» لأعرف ما يعاينه زوجها من تردد ذهني، فأجابت زوجي بخير بفضل الله وفضلكم، كان الفكر في هيجان المواجهة لذلك كان كلُّ شيء منزويا في ذاكرته ولا يمكن أن يفكر إلا بالمواجهة والدواعش استهدفوا عوائلنا بسبب الانتماء النسبي، والحقد على الحسين عليه السلام هو الانتصار علينا ليتسامى عندهم عرش يزيد ابن معاوية، تقول العلوية وهي تتحدث لنساء المحلة هم كانوا يصرحون لنا اثناء التهديد يعني كان هناك استهداف واضح ضد نسبنا الموسوي، بالمقابل كان هناك شعور تعزيز الانتماء لذلك كنّا نسمي الشهيد قربان لأهل البيت عليهم السلام، زكاة لهذا النسب، لو شرعنا الآن للحديث عن تلك المواجهات وخاصة عندما أصدرت داعش ما يخصُّ هذه العوائل وكان البيان خاصة بعشيرة السادة آل فارس حيث أهدروا فيه دم هذه العوائل بأيِّ عمر كان.

نساء شارع ستين تعلقن بمحبة هذه العائلة عائلة السادة وبدأت الألفة توقظ المحبة والواجب الإنساني بأن لا يجعلن العلويات يشعرن يوما بالغرابة أو العوز أو حتّى الضجر، قررن أن يبعدن مشاعر الذل التي حاول الدواعش زرعها في هذه

الاسر العلوية، ستة علويات استشهدن إثر القصف وعوائل تمّ ذبحها في طريق النزوح.

يعقب الحاج إبراهيم عند كل نقطة تحتاج إلى الرأي ولو كانت داعش تريد الأرض فالنزوح كفيل بإبعاد هذه العوائل عن المواجهة، يريدون إبعادهم هذا ما يدعون لكنّ الحقد اكبر من هذا الأمر فيلاحقونهم ويسدون عليهم الطرق ليذبحوهم.

صار الناس في شارع ستين يتحدثون عما يسمعون بحيرة وألم وشبان أهل الحلة تحمسوا للتطوع، وتطوع الكثير منهم ليقفوا هذا النزيف، والمسائل التي ترونها هذه العائلة مؤلمة لكنّ أهل الحلة لا ينظرون على أنها انكسار بل ينظرون إليها كعزيمة انتهاء.

يستعيد (جميل) بعض هدوئه النفسي كلما يجد فرصة يغافل أهله فيشتري كرة قدم جديدة لتنام معه وفي الصبح يهديها لأول طفل يراه، ومما رووا عن أحوال قريتهم مع داعش :

في يوم من الأيام انتبعت بيوت السادة الى صوت امرأة تستغيث طالبة العون بإنقاذها، خرج الناس تدفعهم ضمائرهم لإنقاذ المرأة وإذا بها لعبة داعشية فجر الانتحاري نفسه وسقط الكثير من الضحايا وصل عددهم الى ستة وأربعين شهيداً وعشرات الجرحى.

يقول الحاج إبراهيم تعقياً على هذه الحكاية: لو حللنا هذه القصة سنصل الى شعور الدواعش أنفسهم بإنسانية هؤلاء الضحايا وطبيعتهم وغيرتهم فتخطط

باستغلالهم عبر هذه الغيرة العلوية، هبوا لإنقاذ امرأة واستمرت عمليات الاستهداف، يقول جميل وهو يستعيد بعض نشاطه الذهني حرقوا مراكز الشرطة وأرادوا حرق (محطة الوقود).

ابتسم لهم جميل ذات مرة وقال: سأحدثكم عن معركة الباذنجان ذات يوم خرجنا للتسوق وكان في أحد المحلات باذنجان واذا بأحدهم سحب مسدسا وقال: أنا جوعان أعطوني وإلا سأقتلكم ودفع الثمن لكنه كان يخشى أن يخلص الباذنجان دون أن يحصل عليه واذا بآخر يخرج (رمانة يدوية) يقذفها على الناس وأصبح القتال الدائر على الباذنجان سلوة لقناص استغل الفرصة وراح يلتقط الأوامر تحت دعوة الباذنجان، فرجع الناس أيديهم وشكروا الله على نعمته. قال احدهم: ذهب أولادنا إلى الحشد كي لا يحدث لمدينتنا ما حصل عندكم، فكان جميل كلما ينام توظفه أحداث مرعبة.

سأله: هل الموضوع طائفي؟، قال لهم موضحا: هم كانوا يركزون على المنحى الطائفي من أجل أن يقولوا أننا سنة ونكره الشيعة ونريد أن نبيدهم وهذا القول لا يمثل الحقيقة، وإنما كانوا يقتلون من يرفضهم حتى لو كان سنيا، قرأوا التاريخ حسب هواهم ومعرفتهم.

فأحد امراء داعش وضح في رسالة علنية عبر المايكروفون: إننا سنفعل بكم فعل هارون الرشيد بموسى بن جعفر. وهذا يدل حسب قاموس الشرح الذي تبناه الحاج إبراهيم إنهم يجهلون التاريخ تماما فلا أحد من سنة رسول الله يكره موسى بن جعفر عليه السلام، هؤلاء أغبياء تفصلهم عن تلك الأحداث قرون لكنهم أصرروا أن يتنفسوا الماضي بتيه كبير.

مشاعر شتى تتنازع بين الرجال وهم ينظرون إلى قدمه المبتورة بحزن كبير لم يخطر ببالي أن هناك أناساً ينصفون هذه الجراح و يقيّمون ما قدمناه، أنا لا ادري هل سترفع الرأس أمام الخراب إذا عدنا إلى ديارنا أم ننكسه حياء بما حلّ بمدينتنا؟

قال احد سكنة شارع ستين الجميل بناسنا أنهم صبروا على هذا البلاء، وعلى جرائم غير مقرة في كلّ أديان الله، سأل احد الحضور في أماسي رد الخاطر: طيب والحواضن؟

أجابهم: نحن شيعة والشيعة ينظر حسب وصية إمامه الى سبعين محمل، فبعض تلك البيوت كان يقودها الطمع لكن أغلبهم كان يتصرف تحت التهديد لو لم يتعاونوا معهم سيعتبرونهم خونة، يقتلونهم ويسبون عيالهم، ولذلك كانت اغلب الجماعات تتفرج على مصائبنا وبعضهم يشارك فيقتلنا، وهناك من أعلن الندم لنا لكن بعد فوات الأوان.

يقول أحد شباب الحلة: لقد استيقظت تلعفر في بابل وكان الحديث من أعماق قلبه يصف الوجدان الحليّ الذي تعاطف كثيرا مع عوائل (السادة)، منذ مدة والناس تريد سرّ العلاقة بين جميل وكرة القدم التي يشتريها كل يوم ويهدئها لأول طفل بعد ان يبئتها في فراشه، هذا القادم من مدن الموت ومشاعر الألم يتعلق بكرة القدم، هل يتوج بها قدمه المبتورة كردة فعل؟ أم هل يشعر بحنين إلى الركض واللعب وهو بهذا الألم؟

قال أحدهم: ولم لا فالإنسان دائما يصبح عند نقطة ضعفه، لكن زوجة الحاج إبراهيم خرجت بحصيصة أخرى عرفت مغزى هذه القضية من العلويات ولا أحد

يعرف لماذا تأخر السؤال وهو مستفحل في رؤوس الناس؟

تقول العلوية: الاب يستذكر ابنه (كرار) كان عاشقا لكرة القدم وكان يتحدث ذلك اليوم عن موعد لعبة مهمة حتى أنه وضع الكرة معه في الفراش وهو يتوعد الخصم بالأهداف (أريد أن أسجل غدا نصف درزن من الأهداف لأريهم من هو اللاعب كرار جميل)، إلهي، أصبحنا بانفجار حزامين ناسفين راح (كرار) ضحية وتخلي عن الدنيا ولم يترك كرة القدم من يده، انتزعوا الكرة من يديه ليدفنوه.

قال الحاج إبراهيم وهو يدعو الله بالانتقام من الظالمين: إن ما حدث على تلعفر ليس ببعيد عن هويتنا المذبوحة، تأريخ يتبع تأريخ وذاكرة الشيعة تجود بمثل هذه المحطات المهمة في عوالم الهوية وعادوا إلى تلعفر إلى بيوتهم المحروقة وأغراضها والتعويض الحكومي يعاني من ترهلات الروتين أمام سخونة الجراح، لا تعويضات لكنهم تنفسوا الأمان بوجود قوات الحشد الشعبي وقوى الأمن وصحوة الأهالي، لكي يلعب أولادنا كرة قدم متى تشاء، وجميع الأطفال سيلعبون وسيحضر يوماً ما كرار ليلعب لعبته التي حرموه منها، ويقول جميل: كنت قد احتفظت بكرته في البيت لكنني عدت أبحث عنها ولم أجدها لحد هذا اليوم.

أحذرك منها فهي تخون

كنت استغفرُ الله كلما أسمع من يتهم الدواعش باللادين وبالفساد وأعتبر هذه الاتهامات من الردود الانتقامية، والآن اختلف الأمر فهم يستعرضون أمامي أشياء غريبة، وأسمع ملخصات خطاب مشوه، أحدهم يهمس في أذني:

يا شيخنا الدنيا دون شراب خراب.

لا اعرف سبب وجودي هنا، وما الذي يريدونه مني، وهل هذا الخطاب طبيعي يمثل حياتهم أم القصد منه الاستهانة بي؟ رموني في غرفة أشبه بالسرداب بعدما اختطفوني من المسجد، وجاءوا بي إلى هنا، فما الذي يريده الدواعش مني؟ عرضت السؤال لأعرف الغاية من اختطافي بهذه الصورة المذلة، وضعتُ الكثير من الاحتمالات، فإذا القضية قتل فلماذا اختطفوني؟ ولماذا لا يقتلوني مثلما يقتلون الآخرين؟ وهناك احتمالات أخرى ومنها أنهم يريدون أن يتركوني أموت بهذا الصمت، لأن جهل السبب هو من أشدَّ أساليب التعذيب، وجاءني عابث آخر يهمس في أذني:

لا تقلق شيخنا اليوم خمر وغدا أمر!

أعتقد أن ما يفعلونه بي أشبه بالمسرحية ومضمونها أننا لانحترم الدين، توصلت بقضية اختطافي إلى أسباب عدة، والأقرب أنهم يعملون على إهانتني كي أكون عبرة للشيوخ ورجال الدين، ربما، وربما أيضا يريدون استدراجي لأنتمي إلى التنظيم، فهم يعرفون مركزي بين الناس، واحترام الناس لي، لذلك نُوِّعوا المشاهد الاستعراضية، وآخرها شدوا وثاق عيني كي لا أبصر، والعمى المصنَّع يبعثُ على الخوف ويزيد مخاوف الإنسان، وعمَّ المشهد صمتٌ، وبين خلايا الصمت يقدمون مسمعا جديدا، سقوط قذح على الأرض هنا أو إصدار صوت عالي فجأة هناك، أو يقدمون مسماع من التعذيب، وإلا لو كانت حقيقة كان التأثير أكثر لو كنت أرى التعذيب بعيني، كلُّ هذه الأمور تكشفُ لي ملامحها، وللعنمة وجه آخر من وجوه التعذيب، فالعنمة عند السجين تجعله ينفردُ لمخاوفه، كنت أرددُ في سري ادعيةً تشجعني على الصبر، وتكون ردًا من ردود القوة قرأت على مسامعهم (الآخرة خير من الأولى) وكررتها وبقيت أكررها ويبدو أنني نجحتُ باستفزازهم، أجباني وهو يضحك سنأخذك لها بقت، وأنا أكررها بشيء من التحدي، رحتُ أسألهم: ما الذي تريدونه مني؟ لماذا لا تخلصوني؟، أجباني صوتٌ:

نحن ننتظر الأمير شيخنا.

- قلت مع نفسي: ربما هي لعبةٌ أخرى، الانتظار في الزنانات مريع، لحظاتٌ ثقيلة مرّت عليّ، ولحظات وإذا الصمت انفجر عن حراك مرتبك، على ما يبدو حَصَرَ أميرهم، فكَّوا الوثاق عن عيني وأطلقوا سراح البصر، رأيتُ أميرهم ومعه حمايته وخدم وحشم، حاول أميرهم أن يصطنع أمامي الهيبة، ويبدو أن هذا الشخص هو أفضل ما عندهم من موديل، رجل كبير السنّ

عليه سيء المكر وحراك يتخطى العمر، صاح واحد من الشلة:
قم وقف بكامل قامتك وأنت تحدث الأمير.
أجبت: الأمير أميركم وليس أميرى.
قال حينها قائده موجهها كلامه إلى حاشيته:
اتركوه براحتة.

وراح يردد بصوت مسموع:

الشيخ أبو زهراء، كيف لك أن تبيع دينك وتصير شيعيا؟ أجبني كيف كفرت؟
أجبت: أنا قومت إيماني وأمنت بأهل البيت عليهم السلام.
ضحك أميرهم ضحكة مفتعلة وقال:

- الأخبار التي عندنا أنك رجل مثقف متكلم ومحاور جيد، لك مكانة مميزة،
ومطلع على الكثير من الكتب، يقولون أنك تحمل مكتبة في رأسك، فانا لا
أملك ما أحاورك به، ولك معجبون وأنا واحد منهم، لكنني أعجب فعلا
كيف تركت المذهب؟ وانتقلت إلى التشيع الفارسي؟ ودعني أسألك عن
رأيك بتنظيم دولة الإسلام؟، أجبت:

- ليس هكذا يُسأل السؤال، لأنه قد يستثمره غيري ويُظهر عواطف مزيفة
لينجو، دعني أنا أسألك أي دين هذا الذي أجاز لك اختطافي؟ هل تسمي
هذا الفعل جهادا؟ أجبني لأقول لك إن مدينتي كانت قبلكم جميلة وحين
ظهرتم ادعيتم مقاومة المحتل.

قاطعني أميرهم بانفعال.

وما زلنا نعمل على مقاومة المحتل.

أنظر بوجه أميرهم المنفعل ووجوه حاشيته مستغربين مني هذا الحوار، القوة
قوة الإيمان وحب الناس والألفة والجمال وكسب العدو والصديق وليس القوة تعني
السطوة والقتل لذلك أرى نفسي أكبر منهم قلت:

لكنكم تورطتم في عمليات قتل أهلنا وناسنا؟

- سكت أميرهم وأطرق رأسه، ماذا يريد أن يقول وأنا أحمل الحقيقة التي
خادعها، وأتوقع أنه سينهار أمامي تماما ويعطي أوامر بقتلي والموت بمثل
هذه الحالات أسلم ما دمت لا أعرف نواياهم ولا أتوقع منهم الخير قال
لي أميرهم:

أكمل شيخ أكمل.

- قلت: هل هذه الغرفة الاسطبل أعدت للاستجواب والتحقيق؟ أم
للقتل؟ يبدو أنها للاستقبال.

قال أميرهم بحرقة قلب:

أكمل شيخ لأعرف كل ما يدور في رأسك عنّا.

قلت:

- انقلبتم بعد تلك الشعارات التي رفعتموها الى قتل المترجمين وبعدها تحوّل
الشعار الى قتل أفراد الشرطة والجيش، ومنها بدأت بقتل الموظفين موظف
الكهرباء يقتل وموظف المستشفى يقتل وكلّ خادم شعب عندكم يستحق
القتل، وخاصة لو كان من أبناء الشيعة، عندما تقتلون موظفي دائرة

خدمية مهمة هل تقدمون بديلاً لخدمته؟ لا طبعاً لأنكم تسعون للخراب وتبحثون عن كل صوت مثقف لتخنقوه، هل تريدون قتل المذهب؟ أو المنهج الحسيني فيهم؟ أم فكرتم بقتل ثقافتهم وكياستهم؟ بالمناسبة أنتم قتلتم من مثقفي السنة ايضاً قتلتم كل من لا يريدكم، لا تملكون سوى القتل والدمار.

غضبَ الأميرُ، وأراه يرتجف من الغيض لكنّه يحاول أن يتناسك أمامي، قال أميرهم ويبدو أنه يريد أن يقول ما في جعبته من كلام عساه يرد ماء وجهه أمام مجموعته على الأقل:

- ثق شيخنا لولا رجال الدولة الاسلامية لرأيتم وجه الشيعة الحقيقي، قاطعته.
- لقد عايشناهم قبل مجيئكم ولم نر إلا الخير والمحبة والمعروف إنهم أصحاب دين واخلاق حسينية عالية.
- تأفف حينها وقال:
- هل هذا الشيخ هو رجل دين سُني كما قالوا عنه أم إنه شيعي متعصب؟ اوه تذكرت انه صار شيعيا ويخدم في حسيناتهم، كم تبعث لك ايران؟
- أنتم لو كنتم سعيتم بدل هذه التهم الفارغة والمجانية وشرعتم بدل القسوة والقتل والتفجيرات والأحزمة الناسفة الألفة وإشاعة المحبة والسلام، لكنتم فزتم بعراق موحد شيعية وسنة وأيزيدية ومن كل الطوائف ولصرتم فعلاً بمواجهة أمريكا.

(سكت برهة وراح يتلفت ليعبر عن عجزه وأرى الشباب متحمسٌ لابتداءً

فاصل التعذيب وسيكون هناك التعويض النفسي) ثم قال أميرهم:

- نحن نرى فيك رجل الدين الملتزم وصاحب السمعة الحلوة، ولديك وجه إعلامي فأنت معروف على مستوى العراق والعالم الاسلامي وخاصة بعد إعلان تحولك الى المذهب الشيعي، فالذي نأمله منك أن تلم شتات صوتك الإعلامي وحسن سمعتك وقوة صلتك بالأعلام لصالح دينك ومذهبك ونمنحك الفرصة أن تعيد الصلة بانتمائك السني.

قلت: وأنتم لماذا لا تحملون حسن السمعة؟ والسعي إلى السلام؟ أنعرف أنا لحد الآن لم أحدثك عن جرح الواقع.

(إبتسم أميرهم ابتسامة مكر بوجه مجموعته) وقال لي:

- حدثني بكل ما عندك.

(صارت نيتي أن أواجهه بالحقيقة فهو أكيد لا يحمل نوايا طيبة اتجاهي، الأوامر الواردة إليه تريد أن تبتزني، فهم يريدون أن يبينوا للناس بأن الشيعة يعملون ضمن فصائل قتال مسلحة، ولديهم معسكرات تدريب، ومُدْرِبِينَ من إيران أو لبنان وربما من اليمن، وهم يفكرون بمثل هذه السذاجة، لتكون هناك مقومات سلبية عند الشيعة تعادل سلبيتهم، وتسليحهم جاء للدفاع عن سُنَّةِ تلعفر)، قلت له:

أنت لا تمثل السنة، رجلٌ وهابي بلا دين وبلا وطنية وقد نزعتم الإنسانية من قلوبكم، مَنْ يملك الدين لا يرسلُ حزاما ناسفاً إلى حي الطليعة ليفجر المسجد، ويقتل الشيخ هاشم عنبر، فكنت أرفع الجثث بنفسي وألعنكم دنيا وآخرة، استشهد سبعة مصليين، فهل تعتقد أن دمهم رخيص عند الله؟ حتى الذي يصلي لا يخلص منكم؟ وقتلتم مدير المصرف، وبعض مدرء المدارس، لمجرد أنهم شيعة لا علاقة لهم

بالمحتل، بدل أن تسعى لكسبي كما تقول إعمل لكسب نفسك أولاً.

(لم يعد يتحملني صفعوني أمامهُ بإشارة منه، وكانت الصفعات مؤلمة فورت دمي، حتىّ أنّي لم أشعر بالألم، ولذلك صرخت بأعلى ما أملك من غضب):

تَدعون أنكم تقاومون الأمريكان، وهم الذي يساهمون بإنزال الإنتحاريين والأحزمة الناسفة على البيوت السنيّة لتتهم الشيعة وتكون الحرب بين البيوت في أوجها، والأمريكان إلى اليوم يتعاملون معكم كجزء مهم من فاعليتهم لضرب أواصر الشعب، إتقوا الله، إتقوا الله، إتقوا الله.

قال أميرهم وهو يحاول أن يظهر بالمظهر المرن القادر على تحمل التضادات

الفكرية

- ألا تخاف؟؟

- لا، لأنني في كل الأحوال شهيد، أحببت أن أزودك بمعلومات، قد تظنُّ بأنك الوحيد الذي تعرفها، سيطراتكم إذا مرّ منها شيعي قتلوه، وإذا مرّ الأمريكان أخذوا له السلام، ولا أحد يسألهم أين تذهبون؟ أنت لا تملك إلا الصمت باعتباره أسلوب قادر على خلق هيبة لك وهذا أسلوب رجال الأمن ايام كنتم لها، أنا أريدك أن تصمت، لأقول لك كلّ ما أريد قبل موتي، الإنتحاريون يتدربون في اللاذقية تدريبا أمريكيا وعلى يد خبراء عسكريين، ويدخلون العراق عبر ربيعة ومنها إلى تلعفر، وإلى الموصل، وبعدها يتوزعون إلى مدن العراق كافة.

- قال أميرهم وهو يسحب أنفاسه كوني أثقلت عليه والرجل غير متعود على مثل هذه الصلابة

جعلتك تقول كل ما في نفسك، وتحملت منك الكثير، لم أترك أحداً يتكلم أمامي بهذه الصلابة، لكنك قطعت له لسانه، لأننا ما زلنا نأمل فيك الخير، ونعاملك كعالم من علماء الأمة، ومن علمائنا المجاهدين، لا أعرف أين غاب عنك الرشد والعلم؟ وأنت تعلم أن الحكومات انتقالية، والوضع الأمني بيدنا وليس بيد الحكومات، نحن أصحاب قوة حتى المحاكم تطلق سراح المجاهدين: لأن لا أحد من الناس يتجرأ ليكون شاهداً، كل الشهود يقتلون، أنا لا يهمني كيف تنظر أنت إلى نفسي، أنا يهمني أنا كيف أراها، قلت له لأباغته:

- إحذر منها فهي تخون.

غضب حينها عليّ! وصار يحدثني بغضب شديد، فارت روحه مني، شعرت حينها بأن أميرهم لا يملك أمري، بل هناك جهة أعلى تريد استغلالاً لمصالحها، أو ربما هي خائفة من الإعلام الذي سيثور مندداً بالقتلة، ربما هذا كان يحصل قبل استبصاري، ورفعي راية أهل البيت عليهم السلام وإلا فالدواعش لا يتركون لأحد كلمة، وهذا الأمير صار يتمنى قتلي أو ربما هو يفكر بتسجيل المحاوره ليعيئها إلى الجهة التي تريد أن تحافظ على حياتي، هو يعدني إلى الموت بطريقته، وأنا عليّ أن استثمر الحالة وأوجه لهم كل ما يدور بصدر ابن العراق، إذا لم أؤثر به عساني أن أستفز الشباب الذين يسمعون المحاوره، قلت:

أنتم تقتلون رجال مدينتكم، وتقتلون من هو أكثر منكم إنسانية ووطنية وتريدوني أن أكون معكم أتصيد بعماتي رجال الشيعة؟ كونهم اطمئنا إليّ لأقدمهم

لكم على طبق من المودة، لقد قتلتم مائة وخمسين شخصا ما بين امرأة ورجل وطفل وطفلة في تفجير واحد، وما زال مئات المفقودين وعشرات النساء، حرام عليكم ما تفعلون.

- يبدو أنهم غيّروا حساباتهم معي وأصبح الأمر مجرد البحث عن تهمة جاهزة يرموني بها، كانت أيام النظام البعثي أيّ رجل دين لا يرضخ لهم يبحثون له عن تهمة عار يمسرحونها له، قلت:

- حسبتم خطوات أقدامهم عليهم حتّى صارت مراجعة دائرة رسمية أشبه بالموت - كان أميرهم يجري إتصالات ويغادر الغرفة أحيانا كي لا أسمع المحاور الهاتفية، ولهذا ما عاد يهمهم حوارى قلت لهم:

قبل أن أرحل إلى مشواي أذكركم الآن في مدينتي آلاف الشهداء، حرام عليكم أن تقودكم نفوسكم المريضة إلى صناعة طفٍ جديد أينما تذهبون، وانسحبوا من الغرفة جميعهم ولم يبقَ أحد سوى الصمت ويبدو أنها نهايتي، قررت أن أصبح بكل ما أملك من قوة:

الشيعة الذين تقتلونهم، هم أرحم منكم، ومؤسساتهم الدينية ومرجعيتهم الشريفة، كانت ترسل المساعدات للعوائل السُنّية والشيعة ولا تفرق بينهم، وكانت تتحدى وجودكم وتمدُّ لنا الحياة، يبدو أنكم أفلستم من كل حقيقة حتى بدأتم تخادعون أنفسكم، وستندحرون، انتم ومن معكم وتبقى لي وطنيتي وانسانيتي وعراقيتي، كل هذا العداء معي لأنني قلت: أشهد أن عليا ولي الله، طيب لي الشرف أن أُقتل وأنا أردد لبيك يا حسين، لبيك يا حسين.

الصحفية الحسنة

اللقاء الذي أجرته معي إعلامية صحيفة القدس لم يكن حقيقيا، فتلك كارثة، أقرأ أشياء لم أقرأها، أقرأ ما قولتني تلك الصحفية، كتبت عن لساني: حين جاء تنظيم الدولة (هكذا مكتوب) لم أنظم إلى صفوفه ولم أؤيد أفعاله ولم أحمل سلاحا قط، لكن مع هذا أنا إرهابي بنظر الشيعة لأنني لم اغادر المدينة.

يا إلهي، أيمن أن يصل الخداع بالإنسان لهذه الدرجة؟ صحيح ان الجمال جمال الاخلاق والوجدان وليس الجمال جمال الشكل، أقرأ ما كتبتُه المخادعة وهي تشرح عن حالي: يهزّ عبد الله عزيز رأسه ويسحب نفسا عميقا متحسرا على ما حلّ به وعائلته، ثمّ يكمل حديثه من شرفة شقته في أنقرة التركية وهو يدير ملعقة كأس الشاي أمامه ويشعل سيجارته قائلا: قرار العودة إلى تلعفر هو بمثابة أن توقع على إعدامك بيدك لأنك ستذهب إلى المجهول ولن تتمكن من إثبات براءتك في حال إعتقالك، لأنه سيكون عشرات الشهود مستعدين لحلف أغلظ الأيمان زورا، لأجل قتلك بدافع الحقد والانتقام، وفي الحقيقة لا أعرف من يدير شؤون تلعفر الآن، هناك جيش وشرطة وميليشيات من تركمان تلعفر الشيعة وميليشيات الحشد المختلفة،

وهناك ميليشيات أيزيدية، متعددة الولاءات وبيشمركة كردية، وكل يعمل لأجندته الخاصة والأدهى أن مجاهدي الدولة الإسلامية لا يبعدون عن جميع هؤلاء شيئاً.

- يا إلهي، أكل هذا الكلام أنا قلته؟ هذا ليس كلامي وليست حقيقتي، القصة كلها تبدأ هكذا: زارني لجنة معهم صحيفة جميلة مع مصور، وكانت مهمتها البحث عن (سنة) تلغفر المتواجدين في أنقرة، لتكتب عنهم وعن مطالبهم ويتحدثون عن حالهم وقصصهم التي جعلتهم يهاجرون إلى تركيا، والآن إكتشفت أنها تريد أن تُحرر الصورة التي في رأسها، وأفكارها، ولتقدم العمل ضمن سياسة الجريدة وتلقين رئيس التحرير لها، أما بالنسبة لي فهي إلتقت بي، سلمت عليّ ولم توجه لي أيّ سؤال سوى عبارات الترحيب، وسلمتني في نهاية اللقاء هديتي. فأكتشفت أنها ثمني، وثمرن الرأي الذي زيفوه باسمي، كتبت عن لساني أشياء كثيرة لا تمثلني وقالت آراء لا تروق لي ولا تمثل إلا مشروعها ومشروع صحيفتها، والآنزواء بهذا العالم الهاديّ الجميل يجعلني أفتح النافذة على ذكرياتي لأكتشف حجم الحقيقة ولأطلّ على ذكرياتي دون تزويق، وكنت أتمنى لو كان اللقاء حقيقياً يدون رؤاها بعد الأحداث، كانت ربما ستفاجئ الآخرين، فهي نفسها لا تدرك الحقيقة، ومع هذا قررت أن أروي لها جزئيات عن الحقيقة هي تعتقد أنّي ما دمت من المذهب السنيّ فلا بد أن أكون حاقدا على الشيعة، أنا قررت أن أكتب لها ما يوافق مهمتها، وبالمناسبة هي جميلة وجميلة جدا لكنها مزيفة وسأروي لها بعض التفاصيل المهمة دون رابط زمني، لأنها شهادات تحكي عن عمق جراح تلغفر، لقد زيفت هذه الحسنة الأحداث كلّها، وكتبت عن تلغفر

انشاءات مدفوعة الثمن، أنا لا أحب مثل هؤلاء النساء، سأرويها كما تأتيني
عفو الخاطر:

هناك قرية من قرى (قبك) التابعة لناحية (العياضية) وهي تابعة لقضاء تلعفر،
يسكن فيها السادة من بيت آل سيد وهب، سأحكي لك عنها وعن أهلها بعض
الأحداث.

سيدي الصحفية الجميلة، أنتِ لا يهْمِك مَنْ هم السادة آل وهب، يهْمِكِ أَنْ
تعرفي المسافة التي تفصل ناحية العياضية عن قضاء تلعفر فهي حوالي أربعة عشر
كيلو متراً، قرية جميلة لا تختلف عن جمال قرى أنقرة التي أمامك، عندما دخلها تنظيم
القاعدة انقلبت حياتهم إلى جحيم، وأنا متأكد أنك سترمينني بالتشيع وتقولين هذا
التلعفري شيعي، ستعتقدين أنك أخطأت العنوان لأنك عرفتِ أَنَّ بعض العوائل
التلعفرية الشيعية تعيش في أنقرة أيضاً، لذلك كنت حريصة أن لا تذهب هدية
الصحيفة إلى عائلة شيعية، وعرفتِ أَنَّ علاقات العوائل مع بعضها البعض علاقات
طيبة لم يترك الحقد ثارات ومجازر انتقام، إطمئني أنا رجل من أبناء السُنَّة، لكن
الحقيقة أكبر من أن تباع وتشتري في صحفكم، هل أكتب لكِ أَنَّ جمالك لا يشفع لكِ
بتزوير الحقيقة، ها أنا أكتبُ إليكِ، نحن يا سيدي قوم خرجنا سالمين من شرنقة قاتلة
لا نريد ان نعود لها، لهذا قررتُ ان أكتب همدوء دون انفعال لأنِّي لا أريدُ أن اغضبكِ،
أريدكِ أَنْ تعرفي الحقيقة وهي في كلِّ الأحوال مرة.

بعد سنة ٢٠٠٤ ميلادية بدأ تنظيم القاعدة يحاصر أهل تلك القرى ويمنعها من
التوجه الى تلعفر، ويمنعها من التبضع حتى من سوق الناحية بالعياضية، كان سكان

القرى الشيعية يسلكون طرقا ترايبية بالخفاء ليحصلوا على ما يطبخون، والقاعدة يا سيدتي الفاتنة يمنعون دخول المواد الغذائية الى هذه القرى التي كانت تحاصرهم، تحاصر بيوتهم، تحاصر حياتهم حتى أصحاب المحالّ وكانت ترد لهم تعليقات بعدم السماح للشيعية بالتسوق، ونحن ناس، وبشر، ولدينا دين وأعراف وعوائل سعت بتريتنا على المحبة والسلام لم نحس يوما بهذا الاختلاف الذي سعت له القاعدة، لتقسيمنا إلى طوائف، لكننا لم نكن طوائف، بل كنا أهالي تلعفر، كنا نتفاجأ بأعمال إجرامية كبيرة تؤلمنا. وأسألك ما هي مشاعرك لو رأيت القاعدة ترسل لهم شاحنتي طحين، ستفرحين؟ ما ذنبهم يجوعون؟ هم أيضا جزء من شعبنا وناسنا وهم بشر، وماذا ستكون مشاعرك عندما تظهر الحقيقة أن تلك الشاحنة مفخخة وتحمل سبعة وعشرين طنا من المتفجرات وتنفجر وسط قرية (قبك)، ومع هذا أيتها الفاتنة تحملين صلف التزوير، ماذا تريدون منا؟ لماذا لا تتركونا نعيش بأمان؟ هل ستفرحين عندما تعلمين أن هذا الانفجار تسبب بمقتل واحد وأربعين شهيدا. و مائة وتسعة وتسعين جريحا وعلى إثر انفجار شاحنة الطحين دُمر واحد وسبعون منزلا، والحفرة التي سببها الانفجار بعمق (ستة وعشرون ٢٦ مترا)، أكيد علموك أن تصفي مثل هذه الجرائم بالانتقامية؟ لا يا جميلتي كانت أول عملية ينفذها تنظيم القاعدة في هذه القرى، أقول لك:

انتِ ما زلت شابة أيتها الصحفية وجميلة وذكية وماهرة في فن تزوير الآراء والأقوال والحقائق، ودبلجة المواضيع التي توفر لك الخبز واللحم والمال الوفير، وبكم موضوع مثل هذا ستحصلين على بيت جميل، أنا حزين لأنك لم تسألي، ولم تحاورني أحدا، لم تقولي سوى كلمات الترحيب لتصطادين بها فريستك، هل أخبروك

بأننا السنة لا نملك ديناً يستطيع ان ينصف ويروي لك الحقيقة ؟ انا سأزودك بالحقائق مع أنني أشعر بانك لست بحاجة إليها، يكفي بما في رأسك لإرضاء رئيس التحرير.

ولد تنظيم القاعدة في المناطق السُّنيَّة، هذه حقيقة موثَّقة ولا أخون أحدا حين أكتبها، ففي منطقة العياضية وربيعة وزمار بدأت بذرتهم، وكانوا يتدربون على السلاح ولديهم معسكر والناس كلُّها تعرف بأن لديهم تنظيم تابع لأهالي العياضية ومسلحون يتجولون كيف ومتى ما يرغبون، لا أحد يسألهم، ولا أحد يتدخل بهم، أنت صحفية إذا كانت انسانيك بقدر جمالك، لكنك فكرت كيف تخدمين الناس والإنسانية، وتسعين لتخليقي لهم الأمان وتوفري المحبة وتطبيي الخواطر بينهم ومن أي طائفة يكونوا، سأحدثك بالأرقام، وانا المطلع ضمن فاعلية عملي بحدود خمسمائة شخص من أهالي العياضية وعوائلهم كانوا بالتنظيم مع دخول المتتمين الى القاعدة أساسا وكانوا مائة مقاتل، وبعدها بدأ العدد يزداد، وشكّل التنظيم مشرفين على الحكومة المحلية، وكان مدير الناحية ينصاع لأوامرهم بالحرف الواحد، وربما هذه المعلومات ستغضب رئيس التحرير، أتعرفين أن أسوأ ما يصيب الإنسان حين تسلب إرادته، وهذا هو الغبن الحقيقي الذي تعرضنا له نحن أبناء سُنة تلعفر، لقد سلبت إرادتنا من قبل التنظيم، والمشكلة أن الدولة والحكومة المحلية تعرف كلَّ شيء عن التنظيم، لكنّها تسكت دون أن تفعل شيئا، سأقول لك أيضا:

أكتبي ما أدونه الآن، التنظيم هو علة تلعفر، قرية (قبك) هدموها ثلاث مرات عام ٢٠٠٧ الى عام ٢٠١٣، وأرسل التنظيم شاحنتين مفخختين انفجرت الأولى عند باب المدرسة استشهد ستة عشر طالبا ومدير المدرسة ومائتان وعشرون جريحا من أبناء الشيعة، وبالمناسبة العوائل التي دفعت لهم رشوة التزوير غير راضين عن ما

دونتيه في صفحتكم، لقد بعدتِ الخطوة عن اهاليهم، يبدو إنكِ لا تعرفين أن لديهم علاقات وقرابات نسب مع العوائل الشيعية، وكانت جميع الطرق ملغومة برجال التنظيم، لقد قتلوا المهندسين الشيعة وكانوا يزرعون الكمائن في محطة الوقود وفي المستشفى، ويشترون مَنْ لا ضمير له ليقولوا أن السنة معنا، لقد دمروا في (قبك) وحدها مائة منزل تدميرا شاملا، سأكتب لك عن التدمير الشامل وعن المنازل المهدامة وعدد العجلات المفخخة.

يقول عنكِ الأهالي هذه المرأة جاءت لتبتز الحقيقة، سأكتبُ لك، ما لا تتوقعين عن العتبات الشيعية المقدسة حين تحركت لتقديم المساعدات الإنسانية والهدايا ولم تفرق بين العوائل الشيعية والسُنَّية، أنا أحدثكِ لتعرفي الفارق بين عمل المخلصين للإنسانية واعداء الشعوب الطائفية أمثالكم، وهل تعلمين أن الشيعة لم يتهموا العوائل السُنَّية لكنهم كانوا يقولون أن الجرائم في تلعفر كلَّها من صنع التنظيم، والدليل أن العوائل السُنَّية عادت إلى تلعفر ونحن تأخرنا عن اللحاق لوجود ارتباطات عمل وتمركز معيشة، أنت ايتَّها الصحفية جميلة ولو كنت أدركت الحقيقة لكنكِ أجهل.

مشروع رواية

فكرة تأليف رواية أصبحت لا تفارق مخيلتي، أجمع فيها شتات الجراح التي مرّت علينا، من المؤكد أن الرواية ستكون غنية بالأحداث، وفيها الكثير من الوقائع والمذابح والمجازر البشرية التي رأيتها، وستكون واقعتها قريبة على قلب كلّ عراقي، لأن العراقي بطبعه يحبُّ الحزن أيّ إنه يحبّ الواقع، لا يريد أن يهرب منه بحجة المتنفس، ومثل هذه الرواية لا تحتاج إلى شيء من الخيال لجذب المتلقي، ويبدو أنني سأفعلها، سأكتب رواية عن تلعفر، فكرة جميلة وأنا ابن هذه المدينة المنكوبة، وهل فعلا لا تكتب الرواية إلا عن خيال؟ وهذا الواقع الذي مرّ على مدينتي هو أكبر من ألف خيال، وحين يكون الواقع مليئا بالغرابة ستسهل مهمة الراوي ليصبح مدونا، يدون الأحداث وهي شواهد، بعد سقوط الصداميين تنفس أهالي تلعفر بالحرية والخير، لكن انتشار المجاميع التكفيرية أرعب المدينة، وأغلبهم كانوا مدرّبين في أفغانستان، وهم أيضا من أبناء المدينة، حصلوا على السلاح المتطوّر ولهم دعم مادي ومعنوي من قبل دول معروفة، وهموم الناس كانت منصّبة على المعيشة، والمشاعر التي راودتهم في ذلك الوقت تتركز في الشعور بالحرية، ذكريات المدينة جراح لازالت على قيد الحياة، سأكتب روايتي، لا احتاج إلى مرجعيات ومعلومات ولا

مصادر، كنت الشاهد القريب عن الأحداث فهل تحتاج عيني إلى مصدر، مرجعيتي المدينة واهل المدينة وناسها الطيبين، وشهرة الأحداث التي مرّت ستجعل الرواية وثيقة ممتعة ودامغة، كان عطش الأهالي لممارسة طقوسهم وإقامة الشعائر الحسينية هو بعض سمات الحرية الجديدة، وهي أبسط الحقوق، لا أحد منا كان يدرك أن هذه المواكب تعدُّ من مقومات المواجهة الشيعية بمفهوم الدواعش، وفي أكثر مناطق تلعفر ونواحيها كانت المواكب ترفع رايات الولاء وتطلق الصرخة «واحسيناه»، مواكب مسالمة لماذا يتوجس منها الدواعش وأتباعهم إلى الحدِّ المريب؟! مواكب تقيم مجالس عزاء ومجالس وعظ وتطبخ الأطعمة وتوزعها على البيوت بثواب سيد الشهداء الحسين عليه السلام، وهذه الشعائر معروفة عند أهالي تلعفر سنة وشيعة كانوا يقيمون العزاء ويطبخون (الهريسة والتمن والقيمة)، والمسألة لا تحتاج إلى عقد نفسية وتاريخية وإنما هي سبب من أسباب الوحدة الإجتماعية.

كان أصدقاؤنا من أبناء السُّنة يشاركوننا في إعداد المواكب، يلبسون في عاشوراء ثياباً سوداً مواساة لعاشوراء واحتراما لمشاعرنا، وأعتقد أن هذه المسألة هي من أكثر المسائل التي يتوجس منها الدواعش فهم لا يريدون شيئاً يقربنا إلى بعض، بدأت بوادر التهديد بشكله العلني بإشاعة عسكرية المدينة، وضرب مقرات الإحتلال الأمريكي، فعندما يتحدث إنسان عن تلعفر وثورتها سيعثر على الغباء الداعشي، أما أن يكون هذا المكون الداعشي لا يعرف تاريخ هذه المدينة تماماً، أو لا يعرف شيئاً عن ثورة تلعفر ضد الإنكليز عام ١٩٢٠ ميلادية ثار أهالي تلعفر ونواحيها من العشائر، والقبائل العربية فانقلب جميع افراد الشرطة في تلعفر ضد الإنكليز وقتلوا الضابط الإنكليزي ستيوارت ورفع بقية الجنود الإنكليز رايات الاستسلام، وهكذا تمَّ تحرير

تلعفر من الانكليز والقي القبض على الكابتن بارلو معاون الحاكم العسكري، من هنا نستطيع أن نكتشف عدم معرفة الدواعش بتاريخ هذه المدينة العظيمة، وأما أن تلك العصابات هي اساسا تريد أن تحصن الامريكان من أيّ مقاومة تبدر من أهالي تلعفر سُنةً وشيعةً، فما قدمته طوال هذه المدة مجرد فعاليات مرسومة ببراعة تنفيذ وكان يفترض من الدواعش أن يعرفوا قيمة مدينتهم، أنا أتحدث عن أبناء المدينة فتلك كارثة أن يقودوا الغرباء لتدمير أهاليهم وناسهم.

يسكن تلعفر نحو ثلاثمائة ألف نسمة منهم أصول تركمانية وأقلية كردية، وأخرى من العرب، والعمل الوطني يجري لأجل تحويل هذه المدينة إداريا من قضاء إلى محافظة مستقلة عن نينوى، كونه قضاء يمتلك مقومات لمحافظة، ففيه كثافة سكانية كافية، ويتمتع بمساحة جغرافية واسعة وموارد اقتصادية متنوعة وثلاث نواحٍ هي زمار وربيعة والعياضية، وتلعفر تعني تل التراب، لكن الدواعش فرطوا بهذه المميزات التي يفترض أن يستثمروها لصالح وجودهم، فيجمعون الشعب تحت راية التحرير إذا كانت فعلا هناك نوايا لتحرير العراق من الإحتلال الأمريكي، هذه الحقائق التي سأبني عليها روايتي تحليلات منطقية لشاب تلعفري، تصورات مواطن هدموا داره، شيعة مسالين تحوّل الدواعش من حرب الأمريكان كما يدعون إلى بيوتهم، ليس سهلا على الإنسان أن يكتب تلك الجراح التي تفوح منها رائحة الأسي والغدر، تفجيرات، إعتقالات، وإنتهاكات كبيرة، إستهدفوا الشيوخ كبار السنّ، والتجار، والمثقفين، وطلاب المدارس، الجميع مستهدف وقدّمت تلعفر كواكب من الشهداء، قتلوا أولادهم، فهم ينفذون مخطط لجهات خارجية تخشى الوجود الشيعي، هذه التفاصيل ستتعب السرد ويسأم منها المتلقي، فقررت أن اكتب روايتي

عن الدم الذي سال جورا، وعن المذبوحين، والحروب التي جرت لعدة أسابيع في المدينة، أغلقوا منافذ الطرق، قتلوا كلَّ شيعي، موظفا كان أو طالبا، ليس في نيّتي أن أوجه أيّ اهتمام في روايتي للحكومات والتنظيمات السياسية، مشروعى ألفة الناس، وحقائق أريد العالم أن يدركها العالم، أولا التعريف بمعاناة مدينة حاصروا فيها كلَّ شيء من محطة الوقود إلى المستشفيات، وأذكرهم بالانفجارات العديدة التي حدثت، منها انفجار كبير في حي الوحدة، وأريد أن يعرف كلُّ من يقرأ روايتي أن في كل بيت من بيوت تلعفر راية لعدد من الشهداء، ضحاياهم ليسوا مقاتلين كي ندرك حينها انها مواجهة مقاومة بين جيشين أو تنظيمين يحملان القتل والموت والدمار إلى أناس مسالمين يريدون العمل والمثابرة والبناء، أعتقد أن تأليف رواية اعتمادا على الذاكرة في سرد أحداثها، ستكون عبارة عن سيرة حياة مدينة، وسيرة غيرية لحياتها، الذاكرة هي المصدر وبطبيعة الحال أنا لا أستطيع أن أوثق كلَّ الجرائم التي حصلت، هي مشاهدات مواطن، فهل تحمل الرواية كلَّ هذه المآسي الكبيرة التي حصلت وخراب ودمار دون حكومة؟ دقة في التشخيص، ستكتب الرواية شهادتها عن حكومات عملت لإرضاء جهات لها نفوذ، أربع سنوات والأهالي ينتظرون القوات الأمنية، أليس هناك جهة ما تسأل نفسها ماذا يعني أن تترك شعبا لمدة أربع سنوات تحت سطوة الارهاب والإرهابين؟ ولا أسلحة لدى الأهالي فكيف يدافعون عن أنفسهم؟ نوافذ الجراح مطلة على مشاهد مؤلمة لا ترضي صاحب الضمير، ومن أيّ مذهب كان أو يكون، يقتلون ويحرقون ويفجرون ويتهكون الأعراض ويحدثون الناس بالرسالة السمجاء للسلف الصالح، إنفجارات لا تعدُّ ولا تحصى وجرائم لا مثل لها، أيعقل أن يقبل دين الإسلام بمن يجعل من البيوت الآمنة ميادين قتال؟ ويخطط

لمحاصرة المستشفى وقتل المرضى الشيعة أطفالا ونساء، وشباب تلغفر لو امتلكوا إمكانيات المواجهة من أسلحة وأعتدة لأبادوهم عن بكرة أبيهم، بالمناسبة هم جنباء وأصحاب غدر وأهل كرائم، تستحي الرواية أن تذكر من يستعينوا باستغاثة النساء لتدبير مكائد قتل، وكانوا يخافون الشيعة لذلك يقتلون كل من يخرج من المدينة كي لا يعود لهم مقاتلا، يكتبون شعارات الموت على جدران الجوامع وأهالي تلغفر ناس أقوياء ما راودت همتهم يوما ضعف، منعوا عنهم الدواء والغذاء ومنعوا عنهم الماء والكهرباء، أتمنى في الرواية أن ألتقي بوجه من قادة الدواعش، أتمنى لو اقدر أن ألتقي (عبد الرحمن البيلاوي)، أميرهم وكبيرهم ومجرمهم، أريد أن ألتقيه، ألتقي روحه القدرة، لكن أخشى أن تتحوّل الرواية إلى متنفس فتطغي إنشائيات الجرح عليها، أنا فقط أردت أن أسأله كزعيم وقائد ميليشاوي، ماذا يسمى قتل الأبرياء، وتهديم البيوت، ووضع سيطرات عسكرية؛ كل جريمة تتفرع إلى جرائم، وتفتح على مؤامرة بيع الوطن، وبيع الذمم، لتصبح تلغفر كأنها عجوز لا حول ولا قوة لها سوى انتظار الموت، وهي تلغفر بجلالة قدرها تلغفر التي امتازت بالحوية والحراك وعمّرت الفضاء بجمال يتحدى الدواعش، أعادت فتوى المرجعية المباركة الأمل واستيقظ الرجاء، كل شيء كان في المدينة ينتظر الثورة، ودحر الغزاة، وما ان سمعوا بالفتوى المباركة حتى جنّ جنونهم فهجموا بعنف على المناطق السكنية وسقط الشهداء من النساء والأطفال وبرز دور الدفاع، لا جيش يحمي الناس ولا أجهزة أمن حضرت كي تساعدهم، وتقوي الدفاعات، ليمنحوا المقاتلين الأهالي الأسلحة وسيرون النتيجة التي يعرفونها قبل غيرهم، والشعب قادر على حماية نفسه، هؤلاء أبناء الفقراء يقاتلون بلا إسناد، والجيش هرب وقائد الشرطة انسحب إلى مطار

تلعفر، لا أعرف كيف سيكون قبول الناس لروايتي وهي تحمل خيانة بعض من أفراد الجيش والشرطة وقوى الأمن ولم يبق أمام الناس سوى النزوح، نقع أمام فصل من الجراح جديد، النزوح هو من أخطر المراحل التي عاشها أهل تلعفر، والقرار أن يكون النزوح ليلا وليلة واحدة طالت ثلاث سنوات، لهذا سأخصص في الرواية فصلا أتحدث فيه عن السنوات الثلاث، داعش يعتبر نزوح الأهالي فرصة لإبادتهم، فيهم من صدَّ الهجوم وفيهم مَنْ قتلتهم المجاميع الإرهابية، فناس نزحوا ليتخلصوا بأرواحهم وهؤلاء أيضا كانوا عرضة للقتل.

أستغرب كيف تغلغل داعش داخل المدينة دون أن يواجههم رجل دولة واحد؟! والاستغراب الثاني كيف لمن يدّعي الإسلام ان يقتل ويسبي أناسا تقول (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)؟ هذا يعني أن الدفاع لم يكن عن الدين والرسالة المحمدية وإنما هو الدفاع عن رموز سياسية معينة.

كانت فكرة كتابتي للرواية هو تقديم الحياة التي عشناها بصدق معاناتها، دون أن أزوقها بالتعابير البراقة، فهي على وضعيتها سلبا أو ايجابا، لكي يكون القارىء التصوّر الصحيح عندما يمرُّ على ذاكرة الدمار، البعض نزح إلى سنجار وهي بلدة صغيرة لا تحتتمل مثل هذا النزوح، حياة سنجار كانت تعتمد كليا على تلعفر، منعوهم من حمل السلاح حتى المرخص، وهذا الأمر إجحاف بحق النازحين، سيتمكن المجاميع الإرهابية بإبادتهم، سأكتب في الرواية فصل عن خيانة اللواء العسكري المنحاز إلى تحزّب جهويّ معين، صرت أؤمن بأنهم جعلوا الأهالي ورقة مقبوضة الثمن، بدأت الأحداث تأخذ شكلا مأساويا يستنسخ أحداث كربلاء، كلُّ شيء هنا، العطش، الخوف، حرق الخيام، القتل، حزُّ الرؤوس، ساترك فصلا كاملا في

روايتي اتحدث فيه عن الحسين عليه السلام وأهل تلعفر، هم أرادوا قتل الحسين عليه السلام، قتلوه ورحل عنهم وترك لهم الدنيا، لكن السؤال هو لماذا حزوا رأسه؟ لماذا سحقوا صدره بسنابك الخيل؟ ما الذي يريدونه من الحسين عليه السلام بعد موته؟ هل الحقد يصلُّ بهم الى هذا الحد، واليوم العوائل نزحوا، تركوا لهم كل شيء، تركوا لهم المدينة والبيوت وقتلوا شبابهم وأحرقوا بيوتهم، فلماذا التمثيل بالشهداء؟ هل هذه من مخلفات جند ابن سعد؟ لماذا سبي العيال واليوم لماذا سبيت العوائل ليركوهم يتنفسوا بعيدا عنهم؟ وسنجانر أمانها لن يدوم ولا بديل عن النزوح، فالطرق تحمل في أحشائها الموت، وحصلت فيها مضايقات كبيرة وضغوط وسيطرات تنتشر لتعرقل النزوح، في بالي أن أقسّم الرواية إلى فصول وكلّ فصل منها يتحدث عن معاناة الإنسان وحرب العقائد والقيم الدخيلة على الإسلام، ومن ثمّ النزوح، أعتقد أنّي سأنبهي الرواية بالنزوح، العطش سلاح ورثته داعش عن أمية وأشاعوا بوجود فرق الإعدامات كي يحاصروا العوائل في سنجانر، سأترك فصلا في الرواية يتحدث عن الأمل، كلُّ هذه الويلات وعدم الوثوق بالنجاة لكن الأمل بقي مرفوع الرأس عند أهالي تلعفر، كان الأمل يحدوهم ليحلّموا بالعودة إلى ديارهم مرفوعي الرأس، وتكون تلعفر راية من رايات المحبة والسلام، الفارق كبير بيننا وبينهم، نحن نحلم بالسلام وهم يلمون بالغنائم والقتل، هل هذه العوائل جيش كي تقتل الآلاف منهم، مدنهم تقودها الإدارات العشوائية التي لا يمكن لها أن تصمد بوجه هجمة شرسة منظمة، والدعايات الإعلامية تلوكها أجهزة الإعلام أمام ضعف إعلام وطني حقيقي، النزوح هو البحث عن منطقة أمان، القادة الأمنيون هربوا إلى بغداد والشباب أبناء تلعفر انخرطوا في فصائل الحشد الشعبي، وعدد كبير منهم

استشهدوا والتحقوا بركب الحسين (عليه السلام)، قررت أن أهدي لهم الرواية فالشهداء أحقّ بها من الجميع، هناك من استشهد في عمليات الموصل وعمليات بيحي والثرثار في يوم واحد قدمنا خمسين شهيدا، سأطرق ولو بفصل صغير عن الشرطة الاتحادية وهي تقاتل بلا سواتر لعدم وجود شفلات تؤمن لهم المكنن، هل تحتل الرواية أشياء خطيرة تجاوزها الاعلام، الرواية تلتصق بالواقع المعلن وغير المعلن، أهالي تلعفر يخشون اللقاءات، المشاكل أكبر من الإفصاح، مشاكل كبيرة مثل بيع النساء في أسواق النخاسة والأطفال، ما نحتاجه اليوم تشكيل متابعات أمنية لإعادة النساء إلى بيوتهن والأبناء الى عوائلهم، بعض الأهالي يعرفون مكان الاطفال ويناشدون الحكومات ولا من مجيب، أحيانا أفكر بإلغاء مشروع كتابة الرواية لأنه لا رواية مهما كان كاتبها متمكنا تستطيع أن تعبر عن الواقع بصورته المأساوية، لهذا أقول لكم الرجاء لا أحد منكم ينتظر الرواية.

موت المدن

قلة هم الذين يستطيعون محاورة المدن، وأنا من ضمن تلك القلة التي أنعم الله عليها بهذه المقدرة، يقول أبي إنَّ عمر القصاصين قصير لأنهم سيبتلون بهموم غيرهم إلى درجة أنهم يقسون على قلوبهم، والقضية ليست قضية تعاطف، وإنما القضية قضية انتماء، وأضاف لي أبي رحمه الله: هي قضية وجدان، وأنا أو من بأن للتراب روحاً تنبض بالمدن، وتلعفر من المدن الذكية جدا ولهذا تقبلت خجلي فوجدتها متواضعة وهذا فضل منها، عافية الشعور ويقظة الضمير، تلعفر (أم غيرة) تضرب الأرض برجلها عندما يصرخ أحد أولادها، آه، تناديه: (فدوه أروحلك).

قلت: أراك متدمرة أيتها الأم؟

أجابتني بحرقه دم: كيف لا أتدمر والجماعات الإرهابية بدأت منذ ٢٠٠٤ ميلادية بحجة استهداف القوات الأمريكية وبحجة مقاومة المحتل وهي تستهدف أبنائي.

محاورة المدن تختلف عن محاورة الأشخاص، كون المدن تشعر بأن كل الأطراف وباختلاف مواقفهم هم أولادها، أبناء جميع الانتماءات هم أبنائها، عندما تتحدث تميل إلى الواقع وتطلب من الله السلامة، لا تفرط بأحد من أولادها إلا العاصين ممن

يعصون الله ويقتلون إخوانهم،

لكن بالفعل المقاومة كانت موجودة.

الزيف لا يدوم ومسايرة أمر لغاية أخرى عبث يصيب القلب بالحسرة، الأمر لم يدم إلا ستة أشهر، بعدها استهدفوا المترجمين ومن ثمَّ استهدفوا كلَّ من يعمل مع المحتل بعدها انكشفت الصورة الأوضح وصار الاستهداف طائفياً.

سكتت لحظة حتى أنها استأذنت دموعها لتكمل جملتها:

هل تعرف ماذا يعني موت المدن؟ مرَّ ببالي لحظتها صور لمدن تهتر ثمَّ تنام راحة مع بيوتها وشوارعها وناسها موت المدن ليس سهلاً، القاعدة استهدفتني قبل أن تستهدف أبنائي كلَّ يوم يمرُّ كنت أتحسس فيه نهايتي، المدن عالية الاحساس وهماجة الحنين، تكاد تفقد قلبها عند كلِّ تفجير، ومنَّ يعتقد أن هذا الأمر يسرني؟ فهو واهم، تورم قلبي من تلك الجرائم البشعة حتى كدت أن أفقد عيني، لا يريدون أن ترتبط أوردة المدينة بعلاقات عامرة بالخير، يكرهون المودة والسلام، بدأ الوجع يتتابني حدَّ الإغماء إثر التفجيرات التي بدأت عام ٢٠٠٤ ميلادية فعشر سنوات مرعبة عشتها بألم، كنت أنظر إليها بحسرتي وهي تكاد تموت مع كل استذكار، أشعر بأن الكلام صار يخنقها أكملت حرقتها:

أغمض العين فأرى القلب يبصر الجراح، أتمنى أن يكون الواقع مجرد حلم يمرُّ بليلى، كابوس يطبق على الصدر ويروح إلى لا رجعة، لكنني احزن بقوة حين أجده واقعا، عشر سنوات مرَّت عليَّ وأضلاعي سحقتها سنابك التفجيرات بين عجالات مفخخة وأحزمة ناسفة، لا أحد يستطيع مخادعة الجراح، فهي لا تنخدع

مهما أجادوا الخديعة، وقلب الأم لا يهادن الجراح، الجثث التي تتناثر على صدري تقتلني كلَّ حين، وكأنَّ الجراح عسكرت في روحي، ليس هناك منطقة واحدة سلمت من الأحزمة الناسفة والتفجير لا يفرق بين مذهب ومذهب، نظرت إلى وجهي وابتسمت وابتسامة الألم تكون بطعم الهيل في (حسن كوي) كان التفجير كبيراً والمستهدف الجميع، لا فرق بين أنين الأمهات وحدثها الفواجع، وبدأت تصفية المتيمين إلى سلك الشرطة، العالم يرفع شعار الشرطة في خدمة الشعب وهنا يقتلون كلَّ شرطي، سأحدثك عن تفجير منطقة المعارض ومنطقة المعارض تقع في الجنوب مني، هذا التفجير يبكي خاطر الحجر، الجثث متناثرة، وهذا المنظر لا يرضي إلا أصحاب الضمائر الميتة صرت أنظر إليها وكأنها تذوب في محنة الجرح، كادت تبكي لكنها تماسكت هذه المدينة التي تشبه كربلاء إلى حد كبير.

راحت تسألني: ماذا يريدون؟ هل يريدون ان يجعلوني وحيدة دون ناصر ولا معين؟ لا أعتقد فالجرح يتنامى في كل قلب كنت أشعر لحظتها بثقل الجراح المضنية وألأم حين تحدثني كان لونها يتغير، وأشعر أن لكل بلاء لون، وكادت تبكي لكنها سرعان ما تسيطر على آلامها وتقف بطولها، أنا أعرف أن بكاء الأوطان يصل ذروة الأسى تقول الأم تلعفر:

أولادي بغوا عليّ ولا ضلع بقي عندي سليماً بعد تفجير حي الوحدة، هو وحده يكفي لعقوقهم وبعدهم عن الدين، فمَن في قلبه الله لا يفعلها وأنا بريئة من فاعلها إلى يوم الدين، حقد ميمت، تهديم منازل تنهار على ساكنيها، شاحنة ملغومة، انفجارها كسر ظهري، وبنفس اليوم حدث انفجار ثانٍ في قرية (كسر محراب) وشرُّ البلية ما يضحك هم ينادون مع كل تفجير تكبير، الله أكبر.

إستراحة قصيرة من الألم، تركتها ترتاح دون أن أشاغلها بحديث او سؤال، أنا قررت أن أتركها تسترسل، تبسم بوجهي حين تقرأ أفكاري وتعرف ما أريد قالت: أنا أتحدث عن أولادي، كانوا سابقا لا يعرفون مثل هذه الأمور، كلُّ يجب الثاني دون أن يعيروا الانتباه لفوارق طبقية أو مذهبية أو فكرية، عندما أتت القاعدة، استفردت ببعض مَنْ ينتمون لها من أولادي للأسف انجرفوا مع القاعدة وأصبحوا قادة تنظيمات إرهابية، بدل أن يفكروا بتعميري وبناء ما هدّمه الطغاة لعقود، يحزني أنهم هشموا الروح قبل الجسم إلتفتت لي عساني أحاورها باستفسار، لكنني تركتها لجراحها لأدون للعالم تلك الجراح كأول إعلامي أخرج المدينة من صمتها وحوارها، وحين فاجأتها بصمتي استمرت بالحديث أنا متيقنة لا أزمة تدوم، وسيهربون بعدها لاجئين إلى الدول بحجة الخوف لكن الحقيقة أنهم لا يستطيعون مواجهتي لا يقدرون أن يرفعوا عيونهم بعيني، كانوا يجاربون كلَّ شيء يمنعون المواطن الإنسان من مراجعة المستشفى للعلاج، من أي طينة هؤلاء؟! يحملون قلوب حجر، أدموا قلبي، يطاردون الإنسان ليقتلوا فيه إنسانيته، ويذهبون إلى الجامعة ليذبوا الطلاب، الطرق زرعوها بالموت، كان النبي ﷺ يتطقس أخبار الناس فيعود مريضهم ولا يفرق بين ابن دين ودين يعود مريضهم ويعين محتاجهم، أين هؤلاء منه؟ أين تكبيرهم؟ الوجد يخلق حالة ضعف بنية للمدن، عذبتني الأحزاب التي لم تتخذ أيَّ أجراء لحماية أولادي، كان يمكن اتخاذ الكثير من الإجراءات التي تحصن أولادي وهم في مدنهم وتقدم لهم الخدمات المدنية داخل مدنهم ما دام البغاة خنقوا عليهم الخطوة، وسترهم الإعلام المزييف، لقد حاول الأمريكان شنَّ هجمات على البيوت من أجل خلق الفرقة وإيجاد صراع للانتماءات، وأولادي أصحاب همّة لم يدنُّ لها

الأمريكان لذلك بعثوا الدواعش كي ينهوا الوجود الشعبي المقاوم، كانت الأوامر الحكومية لا تجيز للمدنيين حمل السلاح، وتمنع البيوت من انشاء سواتر ترابية، الجراح أكبر من ضهادها ولايسعها بوح، عقب كل تفجير كنت أحتضن أولادي أجمع ما تناثر من أجسادهم، رأس هنا وقدم هناك أجمعهم وأضمهم في القلب، والكثير من أولادي تفسخت أجسادهم في بئر علو، قبل أن تذهب.

توقفت عن الحديث ومسحت دموعها، نظرت إليّ كمن تريد أن أوصل لها حاجة، قلت لها:

أنا بأمرك تلعفر العزيزة، قالت:

عاد النازحون الى بيوتهم فوجدوها خرائب تحتاج إلى معين يعيد بناءها، أخبر الجميع أنني أحتاج إلى معين يعينني.

السما عصىة على التخرىب

اللحظاا المنللفة من عقال الزمن آجعل الإنسان آآماسك قويا مثل قلعة عصىة على السقوط؁ لقد عانينا وعشنا فواجع لا آحصى فى أسر أيام قاسية؁ موجهة حادة مثل مءىة آطعن آاصرة المءىة؁ آماا بنا الأرض آآى صرنا لآظآها وآأنا نقف على فراغ؁ ذاكرة كل واحد منا ملوآة بالءم؁ أئنا ذهبا هناك ضحايا وبيوآ مهءمة وأطفال ىركض بهم الآوف؁ سنواآى السبعين صاراآ آآشى آآمالاآ المسآقبل المجهول؁ كآآ أسأل نفسى:

هل سنجر يوما على النزوح؟ الءواعش ىريدون أن ىقلعوننا من الجءور؁ ونحن جزء من هذا المكان كما الشجر الواقف آآوهج فى ءمنا؁ كيف ىسلبوا منا المءىة والقرى والماء والهواء؁ آئأى الأشياء الأليفة عن البال وىصبح كل شىء حزئنا؁ مَنْ منآهم هذه القوة الطائشة؁ إنهم لاشك الأمريكان؁ لكنى عاآ اليوم بفضل هذا الءى ىهلّ علينا فرحا؁ لم ىكن آآءهم آآوقع الءى آاآ؁ لا آآء كان ىعرف أن فآوى مباركة من المرجعية قاءرة على أن آقلب الموازين؁ جعلنى أعود إلئهم أنا ابن السبعين؁ آآمل السلاح لأقاآلهم واسترء من عيونهم مءىآى وجميع قراى المسلوبة؁

استرد هواء تلغفر الذي حرّمونا منه، وحاول البعض من أهلنا أن يستعطف سنواتي السبعين:

جدو أجلس أنت في البيت ونحن نكفيك القتال.

اعترضت حينها وقلت لهم:

ما لكم يا أولاد أنا لست أكبر من حبيب بن مظاهر.

يسألني حفيدي إبراهيم:

وهل تتركني أنا هنا؟ لا يا جدي أنا معك، سأتبعك أينما تذهب، هذا المذبوح الذي فقدته أمس مذبوحا، هو أبي يا جدي، ستراه بي وأنا أقاتل، يظلمني من يبعدي عن القتال.

بكى فأبكى من حوله وصاح أنا أبن شهيد، ابن المذبوح ظلما، أنا يتيم تلغفر، إبراهيم ابن الشهيد خليل، سكتو حينها ولا كلام يكفي لاستيعاب الموقف لقد أبكي الرجال، حفيدي استفز ذاكرتي نهضت بعيدا عنه أحمل الجراح، لا قناع يحجب الذكريات المؤلمة، لا قناع يوارى الألم أنا أخاف عليك؟!، مَنْ عندي غيرك يا إبراهيم؟، أنت لا تعرفهم مثلي.

مرّت أمام عيني مشاهد تهد الحيل، فواجع لا ترحم، ولا تمتلك ذرة من الرحمة، كنت أنت بذاكرة صغيرة يوم فجروا دورة القلعة عدة مرات، مفخخات تفجر سوق الخضار، ضحايا شهداء وجرحى، اغلبهم استشهد في الطريق أثناء نقلهم للمستشفى والانفجارات تهز المدينة، لو فتحت يا ولدي ذاكرة كل إنسان من أهالي تلغفر ستجد فيها جرحا اسمه فاجعة انفجار حي الوحدة.

أتذكره يا جدي كان الانفجار قويا جدا أرعب كلَّ الأطفال، عدوت راکضا صوب أمي التي خرجت مرعوبة من الدار احتضنتني وأبعدتني عن المشهد، لكني رأيت بعد أيام البيوت التي تهدمت، رأيت الحي كان عبارة عن ركام لشدة الانفجار، شاحنة مفخخة محملة بالمتفجرات ظننا الفقراء مساعدات طحين.

فالعُدو إجرامي يمتلك روح وحش بحق سكان هذا الحي.

يبدو ان هذه الأحاديث الجانبية لم تفلح أن تشغل حفيدي عن مراده ومطلبه

قال إبراهيم بإصرار:

أنا يا جدي أعرف كلَّ هذه الحقائق التي ذكرتها، لكنني لن أترك تذهب وحدك، أنا معك يا جدي، أنا لست طفلا صغيرا، كان مع الحسين عليه السلام مقاتلون أصغر مني عمرا، وكان السلاح بالسيف مبارزة تحتاج إلى خشونة عظم، أما اليوم البندقية تحتاج إلى قوة قلب، أعطني فالبندقية وسترى كيف أخربط لك وجه داعش.

كيف سأفهم هذا الحفيد الذي لا يتفاهم بأننا نقاتل قطع ذئاب لا يرحم وان المشكلة ليست بمواجهة من يواجهك وجها لوجه، المشكلة بمن يطعن من الخلف وهو يأتيك مبتسما، وحفيدي ما زال طفلا صغيرا في نظر أمه وهو معينها الوحيد بعد فقد زوجها، لا أحد لها سواه، مجرد أن يمسه جرحا ستفقد أمه البصر، وتعيش حياتها مطعونة بالأسى، لا بد أن يبقى هنا فهو رجلهم الوحيد، إذا أنا استشهدت، وهؤلاء القتلة أضعف من أن يتصورهم أحد، لأنهم بلا إيمان، مجرد أن يعرفوا أننا لسنا وحدنا سيهربون.

بني ربما الأرض تغيرت بفعل همجيتهم، لكن السماء عصبية على التخريب لذلك

هي تستقبل أدعية المحرومين في كل آن، إذا استطاعوا أن يسرقوا بيوتنا، فاطمن يا ولدي هم لا يستطيعون أن يسرقوا منا الجنة، توهموا أن لهم وجود فيها وإنما تزف حور العين لمن يفجر روحه ليقتل أكثر عدد من الناس.

قال الحفيد بشقاوته المعهودة:

لهذا أنا لا أخاف لأني أو من بان الله أكبر منهم، وسيحفظنا من شرهم، خذني معك.

بني اسمعني، أنا نزحت من بلدتي لأجلك أنت، ولأجل أخواتك وأمك ليس لي في الحياة سواكم، كيف تريد ممن هرب لأجلك أن يأخذك إلى الموت بيديه؟ أطرق رأسه أرضاً وخيل إلي أن قلبه يبكي، والناس تتعاطف معه وتتوسلني أن آخذه معي للقتال، ليست المسألة سهلة، كلما أنظر إليه تتعلق مشاهد الموت بعيني ويتصاعد نشيج حزين من مركز الذاكرة واندجت صورة أبيه في وجهه البريء، أنا أريد أن أفهم ولدي أننا رغم هذه الجراح لن نتنازل عن سجايا أئمتنا عليهم السلام، نحن ذاهبون لتحرير مدينتنا لإطلاق سراح بيوتنا ولنعيد الحياة إليها ولم نذهب لنتقم، ربما الصورة معتمة برأسه، نحن خرجنا من تلعفر من أجل أن يكبر صغارنا ويعيشون السلام في يوم ما، هربنا إلى سنجار في أصعب ليلة عشتها في حياتي، نحن تحدينا الموت، حين أراد أن يزحف على أولادنا وأطفالنا نزحنا إلى مدينة هي أصغر من قرانا، هل يعرف حفيدي أن بعض النساء كنَّ يلدن أطفالهن على أرصفة سنجار، ماذا سأخبر هذا الحفيد الذي إمتلكته سطوة اليتيم القسري مبكراً؟ هذا الفتى لا يدرك معادلة الموت بأن الله سبحانه يرهاها.

الموت نفس الموت يا ولدي وإن اختلف الرصاص أو المكان، مشكلتنا لا نريد القتل أو الموت لأحد، نريد أن يعيش العالم بسلام، علينا أن نستثمر فتوى المرجعية

المباركة، فتوى الدفاع المقدسة بعنوانها الصحيح وهي ليست فتوى للهجوم والقتل والثأر، ليس من طباعنا أن نقايض الجراح بجراح، هم لهم دينهم الداعشي الذي يأمر بالقتل والحرق والسلب والنهب ونحن لدينا سماحة النبي صلى الله عليه وآله، وأئمة أهل البيت عليه السلام يا ولدي، حين فتح النبي مكة اعتبر الفتح مرحمة، ورغم كل الذي تعرّض له وهو يحمل في ذاكرته صور الموت والفتك وقتل سمية وزوجها وولدها، صدقني لو كان الدواعش هم الذين تشردت عوائلهم إلى سنجار ما كنا نقبل لهم أن يعيشوا هذا البؤس ونحن نتفرج، وما كنا نقبل أن يموت الأطفال من الجوع والعطش وقلة العلاج، وأن يكون الموت هو الملاذ، لا يا بني نحن أبناء دين وتربية بيوت وخلق إسلام لا نقبل أن نعامل الناس بهذه الطريقة المجرمة، فكلُّ شيء من حولك غريب، العالم، والناس، وإمكانيات الفتك والغدر.

أنا أعرف يا جدي كلُّ شيء وأعرف أنهم يمتلكون عنجهية غريبة.

الناس يتعرضون إلى إصابات القصف المدفعي والصاروخي والجرحى يقتلون في المستشفى، لذلك تطوع بعض الأطباء، ليجعلوا من عياداتهم مستشفيات، يا بني هذه حربي أنا، أنت حربي المدرسة وأن تنجح، و تكون قيمة حقيقية للمجتمع، أريدك أن تضع اسم مدينتك على الخارطة في مكانها الصحيح.

جدي لو كنت بعمرى وحدث لتلعفر ما حدث هل كنت تسكت؟

يبدو أن حفيدي يمتلك الحجة القوية التي تجعلني استسلم أمام قوة بيانه، ولم يبق أمامي سوى الصمت دعني أفرح معك، انا أخبرت أمي بأني ذاهب مع جدي وباركت لي وزغردت حين علمت أني ذاهب إلى تلعفر، فقط أنت قل يا الله يا جدي، قل يا الله، قلت: يا الله.

راح يركض قبلي إلى الفوج وفرحته لا توصف، ينادي: جئتُك يا تلعفر.

أبعدُ من القتل

عندما تعيش مع النازحين، ستكتشف الحياة من جديد، كلُّ يروي لك قصته ويفتح لك نافذة تطلُّ منها على ذكرياته وعلى جراحه ومعاناته، شعرت بأن تلك القصص هي جزء مني واعتدت أن أسمعها حتى صرت لا أقدر أن أعيش دونها، أرى فيها نفسي وراحتي والكثير ممَّا يشبه معاناتي، أو ربما أنا الذي بداخل تلك القصص، لا أعرف من أين تبدأ الحكايات عند النازحين؟ أو كيف تجدد الأحداث نفسها وتلبس أثواباً جديدة حتى تبدو كأننا نعيش كلَّ يوم في زهو جديد، كنت أحاول أن أشحن روحي برغبة الحياة لذلك اشعرتها بصمت المنبر صديقي الوحيد الذي من خلاله أستطيع أن أضم حكاياتنا إلى روايات الطف الحسيني، ترحل مخيلتي عبره إلى عالم اللامكان، قدمي اليسرى لا تسعفني، هي عالية عليّ، حملٌ زائد أجراها خلفي كغصن يابس وأتوكأً على عكازي، شحنت عزيمتي مثل فارس يستعد لخوض آخر المعارك، ابتسمت وقلت مع نفسي:

القصص تحتاج الى تضخيم الحدث عند روايتها إلا قصص الطف وقصص تلعفر، هي ضخمة بفاعليتها ولا تحتاج الى شطارة سارد للأحداث، إروها بأيّ

شكل تريد، وفي كل الأحوال لا تقدر أن تلمّ بكل حيثياتها، لأن الواقع أكبر جرحاً، ومثلها لقدمي عكاز، صارت هذه الروايات عكازاً لرأسي، يأخذني إلى خارج المكان والزمان.

نعود إلى حكاية المنبر الذي ألفته في فترة نزوحي، كان الناس يرونه من خشب، منبر من خشب ولا أحد استطاع من النازحين أن يعرف حقيقته، هذا المنبر الحسيني المكون في الحسينية ولا أحد يتبته إليه إلا في المناسبات، له قابلية مشاركة الوجدان، فهو يتألم لحال هؤلاء النازحين ويكي لحالمهم، أمسح دموعه بيدي، كل صباح أطلُّ عليه أحاوره، أبته معاناتي ومعاناة الناس ليرويها للأجيال القادمة، حكايات المظلومين الذين حملوا الطف رئة يتنفسون بها، صارت ألفتني مع المنبر غير عادية، فهو يحاورني ويسألني عمّا حدث في تلغفر من أحداث:

خلق الله الحياة للناس لينعموا بها، لماذا يقتتلون من أجلها وهي متاحة للجميع وفق شرع إلهي؟ هل هذا العالم الواسع لا يطيق وجود بعضهم مع بعض؟ الجميع يستطيع ان يعيش عليها بسلام، من أين يأتيهم الشر؟ كلما يرتقيني خطيب يوعظ الناس بالإرشاد والخير واستقامة الدين والأخلاق والصلاح.

يصمت قليلاً يرفع دمعته للسؤال.

حدثني ما الذي جرى في تلغفر وبالتفصيل.

أجبتة: بعد سقوط نظام الطاغية صدام في عام ٢٠٠٣ ميلادي قامت الجماعات الإرهابية بشراء الأسلحة من السواق ومن المواطنين وجمعها وتخزينها، وفي بداية ٢٠٠٤ ميلادي بدأ حراكهم باستهداف القوات الأمريكية، ومن ثمَّ استهداف المواطنين العزل.

قال المنبر: لو تفتن إلى التأريخ ستجد أن الشعارات هي دين الطغاة ورأس مالم لإقناع أنفسهم أولاً، قالوا إنهم قتلوا الحسين عليه السلام حفاظاً على وحدة المسلمين بأشنع السبل.

هذه الندوب تجمع الحاضر بالتأريخ ليكون المنهل واحداً وكلُّ يذهب إلى أصله، بعدما كانت المنشورات تستهدف الأمريكان صارت المنشورات لافتات في الأسواق والأماكن العامة تحتوي على أسماء شيوخ ووجهاء المدينة، مطلوبين لتنظيم القاعدة، أما أن ينظموا إلى القاعدة أو يتمَّ تصفيتهم.

أكمل المنبر حديثه:

لذلك كان رفض الحسين عليه السلام لبيعة يزيد هو رفض للظلم والخنوع في كل جيل، وصوت الرفض عند كل مذهب ودين، أجبته:

لقد ألفنا هذا المسار بملء إرادتنا، فصار الحسين عليه السلام رمز هذا الرفض، شيوخنا رفضوا الخضوع وعلنوا موقفهم ضد التنظيمات والجماعات الإرهابية، وحينها بدأت القاعدة باستهداف الناس، بقتل كل من ينتمي إلى الرفض الحسيني من أي مذهب ودين، ومثلما توزع عسس ابن زياد على سكك الكوفة لقتل كل من يرفض حكومة الباغي يزيد، توزع الدواعش في إحياء وقرى تلعفر، استهدفوا الأحياء عن طريق القصف وارسال العجلات المفخخة، وقتلوا الكثير من الناس والعوائل لتصفية كل من لا يوالي شرعهم.

صرت أحتار عن أي شيء أتحدث والذي حدث هو أكبر من قتل وابعد من القتل، مثلما فعل جند ابن سعد فلم يكتفوا بقتل الحسين عليه السلام، قطعوا رأسه وهذا أبعده

من القتل، سحقته خيولهم ورضت ضلوعه وهذا ابعده من القتل، وأسرت حرم الحسين عليه السلام وفي الركب نساء أهل البيت عليهم السلام، ففي تلغفر لم يكتفوا بموت الشباب وإنما يقطعون الرؤوس وهذا ابعده من قتل، ويفخخون أجسادهم ويفجرونها وسط أهاليهم وهذا أبعده من القتل، والأبعد من القتل يعني التيه والحقد الأعمى وتناقض أمورهم فهم يتحدثون برحمة الدين ويهارسون أبشع الحقد والشور البغيض، يصل الأمر بهم أنهم يرفضون أن يدفن الأهالي موتاهم كي يكونوا طعاما للكلاب السائبة، أو يلعبون برأس شهيد كرة قدم، يتدحرج الرأس بينهم وتبقى تركله الأقدام استهانة بقيمة الإنسان وهذا أبعده من القتل، كنتُ أسمع أخبار مدينتي تتساقط على رأسي كالطر، قصص الشهداء وتدمير الأحياء ومطاردة كل من يريد النجاة بعيدا عنهم، كلُّ يوم يمرُّ ألقيه ورائي وأمشي الى المنبر، لا أملك سواه صديقا، أثبه آلامي ومحني، صديقي الذي كان يحتل صدر القاعة الكبيرة فترك المكان وانزوى في إحدى زوايا الحسينية كي يترك المجال للنازحين، صارت في هذه الفترة من حياة النزوح تتناوب لحظات تأملية طويلة، تسرقني من بين الناس إلى عزلي وجلوسي عند المنبر، أحيانا أعيد للمنبر روايات تلغفر حتى صار يحفظها عن ظهر قلب، صرت أعيد روايتها بحزن أكثر ألما، لأن الجرح له عدة أوجه، ومن كل الأوجه نزيه، هل كان بوسعي أن أفعل أكثر مما فعلت، هل قصّرنا بنصرة الحسين عليه السلام، هل قصّرنا بنصرة تلغفر، كُنّا نقاتل ولم يكن في القضاء حكومة، كان عدد أفراد الشرطة ثمانية وثلاثين منتسبا فقط ولمدير الشرطة مواقفه المشرفة مع شيوخ العشائر، ورجالها الذين وقفوا مع الدولة لحماية الناس، نزلوا إلى الشوارع لمحاربة الدواعش، كنت أنظر إلى المنبر فأرى العجب تطلع منه أحيانا شلالات دافقة من الضوء، أحزمة نورانية هائلة، أعتقد أن الزهراء

عليها السلام تحضر لتتفقد أحوال النازحين، تبارك لهم التضحيات، تزورهم كلهم لا تبقي جرحا دون أن تمرّ عليه، ترفع سلامها إلى كل جهد رشيد، لهذا كنت أرى إثر هذه الزيارة أشياء أحسها مباركة تزيد لنا الطعام والهبات من جهات متعددة، تغدق علينا بالنور عقب كل زيارة من زيارات الزهراء عليها السلام، هذه الأسرار كنت أحتفظ بها لنفسي ولا أبيعها لأحد خشية أن أتهم بالجنون، وأنا الوحيد الذي اعرف أن تفجير حي الوحدة في تلعفر عام ميلادي ٢٠٠٧ أبكى الزهراء عليها السلام، أخبرني صديقي المنبر حين حدثته عن هذا التفجير المأساوي الذي راح ضحيته الكثير من الشهداء والجرحى، وتهديم العديد من المنازل بشكل كامل، والتفجير كان عبارة عن عمل مدبر وحيلة إرهابية بعيدة كل البعد عن الوجدان الإنساني، بعدما قطعوا عن الفقراء البطاقة التموينية وصار الناس يعيشون الفقر والجوع، أدخلوا عجلة كبيرة محملة بالطحين، ومفخخة بمادة كبيرة، تجمع المئات من الناس الأبرياء للحصول على مادة الطحين، وحصل الانفجار، كان المنبر لا يسأم من الحديث عن تلعفر وجعلها من الروايات الملحقة بالطف الحسيني، صار كل شهيد من تلعفر يقترن بصورة من صور شهداء الطف وحكايات كثيرة لم نكمل الحديث عنها، النزوح إلى قضاء سنجار خمسين كيلو متراً عن تلعفر، مشتها العوائل سيرا على الأقدام، أطفال ونساء وعطش وجوع والطريق مزروع بدوريات الدواعش تقتل الأولاد وتختطف النساء، ميزة المنبر يمتلك قابلية جبر الخواطر، ومع أن التفجير زرع الشلل في قدمي لكنّه عجز أن يزرع في وجداني الخلل الذي يسعون إليه، وتلك حقائق عساها تؤدي إلى يقظة الضمائر، فالجراح لها وهج سماوي في الأفق، وكان للمنبر دور مشرف حقيقي في حثّ الجمهور الحسيني لاحتضان أهالي تلعفر فالموكب الحسينية، فتحت مساجدها

وحسينياتها وجوامعها ومدارسها وبيوت الحسينيين عانقت جراحهم ووفرت لهم الزاد والأمان ووفرت العمل لشبابهم.

قال المنبر في إحدى مسامراته:

ترك لنا الطف حكمة لم يفهمها الكثير من الناس وعلى مر الأجيال، النصر لا يعني الخروج من الحرب والعدو ينام على التراب بلا رأس، واقعة الطف قالت حكمتها، النصر الحقيقي في النجاة، وتفسير النجاة صعب على الغافين عند مزادات العروش، النجاة هو الخلود، هو البقاء ما بعد الموت، النصر ليس أن تقتل إنسانا وترميه في بئر علو أو في الحسفة، ليس معناه أن تحزّ الرؤوس وتسحق الأجساد بضاوة الحقد، النصر تضحيات من أجل أن يعمّ السلام.

عند عودتي إلى تلعفر ودّعت منبر حسينية أهل المشخاب، قبلته بحرارة وضعت عكازي على رأسه ليبارك خطواتي، ووعده أني سأتي إلى زيارته عند استطاعتي، صار الجميع يدرك سرّ علاقتي بالمنبر وأحاديثي التي ظنوها جنونا، فقال عني البعض مجنون ينزل عن مسامرة النازحين، يجلس منزويا يحدث نفسه، واكتشفوا أخيرا ان للمنبر روحاً وأحاسيس ومشاعراً كانت معهم طوال نزوحهم، صار الأهالي يلجأون إليّ ليعبروا عن همومهم، باعتباري صديق المنبر والوسيط الذي يخبرهم بأمور حياتهم الجديدة، قلت لهم:

المنبر لا يحتاج إلى وساطة أحد، المنابر الحسينية وجدت من أجل أن تحمل فكر الحسين عليه السلام إلى الناس، سأزور الحسين عليه السلام وأزور كربلاء والمنبر واحمل له رسالة موجهة من عوائل فُجعت بتسعة شهداء ومنزل مهدم، وقتلى داعش اعتبروهم شهداء لينعم ذويهم برواتب ومناصب بالضبط كما استقبلت العروش قتلى الحسين عليه السلام وهذا أبعد من القتل.

إلقاء القبض على شهيد

للقبور بصمة على المكان، ولها تأثير سحري ينعكس على نفسية الإنسان، ومقبرة تلعفر تحولت إلى مزار يجمع الناس رغم اختلاف هوياتهم وانتماءاتهم، ولا فرق بين قبر وقبر، يقول أبي رحمه الله: إذا فرقتهم الحياة تجمعهم المقابر، توحدهم تحت سطوة الموت، والجريمة التي حدثت في المقبرة القديمة هزّت وجدان الموت، تجمّع الناس رغم مخاطر التهديد والسيطرات المتخصصة بالقتل ووشاية الوشاة، لدفن جثمان النقيب عصام البياتي، شهيد في ريعان شبابه، عندما يتشابه الموت في المقبرة وخارجها، يصبح أكثر أهمية من الحياة، وأهالي المدن المنكوبة يفكرون بالموت أكثر من تفكيرهم بحياتهم، وسعيدٌ مَنْ يجد قبراً يأويه، وأثناء مراسم الدفن، هجم الدواعش على المقبرة وأصدر أميرهم قراراً يمنع فيه دفن الموتى إلا بأمر من الإمارة الداعشية التي وضعت للدفن شروطاً من ضمنها الانتماء المذهبي والحالة الاجتماعية والاقتصادية، ولقد جُنَّ جنونه عندما عرف أن الميت الذي دفنوه دون إرادته عسكري برتبة نقيب في الجيش العراقي، لذلك قرر هدم القبر واستخراج الميت، وفعلاً بدأ قطيعه بنش القبر، فاندفع المشيِّعون بما يملكون من غضب للدفاع عن حرمة شهيدهم، وهو ابن تلعفر، لهذا كان الدفاع من قبل الشباب قويا ليقفوا هذا

التجاوز على حرمة القبور، والأمر الذي أقلق الأمير هو أن ميتا في مقبرة استطاع أن يجمع هذا الحشد من الناس بهذا الشكل، لهذا كان القرار قتل كل مَنْ يقف أمامهم، ومثل هذه الجرائم لم تكن اعتباطية من قبل الدواعش وإنما هناك أوامر مدروسة لاختلاق الأزمات التي تُمكن المرتزقة من القتل والإبادة، أصرَّ أميرهم أن يستخرج جثة النقيب ويبارس عليها رعونته، حاول الأب أن يتناسك كي لا يندفع الشباب اتجاه المواجهة وهم عَزَلٌ وأن يغمض عينيه كي لا يرى أبشع المشاهد دموية بحق ابنه الشهيد، وأن يصمَّ أذنيه عن قرقعة الضرب وصوت الجلد الذي نهش جسد ابنه وهو في رحلته الأبدية، الأموات لهم قدسية في كل الملل إلا في شريعة هؤلاء الذين لا يملكون ديناً، وكان الدواعش يتلذذون بتعذيب الموتى لإثارة الفتنة، والرجال كبار السن حاولوا أن يسيطروا على غضب الشباب، ومع هذا كان الحدث أشد تعبيراً، لأن القلوب ليست من حجاراً وفعلهم المجرم تجاوز حدود الإنسانية، ومع قرار ذبح الميت، انفلت الشباب للمواجهة وهم عَزَلٌ لا يمتلكون سبيلاً يمكنهم من ردع الجناة، ولا صبراً يتحمل هذا الذي يستعرضه الدواعش بكرامة موتاهم، فكانت الثورة ليختلط تراب المقبرة بدماء الشباب، وكان القرار الأكثر إساءة للآدمية هو قرار ذبح كلِّ المنتفضين في المقبرة وممارسة التعذيب الوحشي ضد جثث الشهداء، والغاية أن الدواعش يريدون أن يتركوا ندوبا كبيرة في قلوب أهالي تلعفر، إقترب أميرهم من جثة النقيب ورفع الرأس على حربة وراح يخاطبه:

لو كنت عاقلاً لما تسببت بكل هذه المجزرة، على الموتى أن يكونوا عاقلين، وعساها تكون عبرة لأهالي تلعفر، فتح أميرهم عينيه وأجالها بين الناس والجاثمين على ركبهم، وأخذ يصيح:

هذا قليل عليكم.

رجال كبار السن أصحاب هيبة عجزوا عن محاورته صاح بهم داعشي عليكم أن تعرفوا أن الأمراء لا يناقشون أحدا، قال الأب معللاً الحادث:

يريدون لابني أن يكون لعنة بين الناس؟

أجابه أحد الشيوخ:

إبنك رفعة رأسنا يا حاج والله كريم.

غرائز الامتلاك المتوحشة تعبت بهذا الخواء أمام حقيقة العلاقات البشرية، والميل إلى الوحشية والتحكم في مسار الخليفة، عصف في ذهن الأب أن القيم العليا المصلوبة فوق آفاق تلعفر، لها صحوة التقوى، هؤلاء يريدون موت تلعفر الروح، لينتزعوا منها قيم الدين الحقيقية، وقيموا طقوس عبادتهم على جثث قتلاهم، وتكبيرهم للقتل والذبح والتفجيرات، وكان الدواعش يرتجفون أمام نظرات الشهداء، مارسوا كل أنواع التعذيب والتمثيل محرّم بالمسلمين بل حتى بالكلب العقور حسب قول نبي الإسلام ﷺ، قرر أحدهم أن يكشف سوء الشهيد عصام من أجل التنكيل به، هذه الحادثة لم تمرّ بسلام، وكان خشية الدواعش أن تخلق جريمة المقبرة ردة فعل جماهيرية، زرعت الخوف فيهم صار الدواعش بحاجة إلى افتعال جرائم أكثر وحشية كي ينشغل الناس بها عن جرائم المقبرة، مَنْ يُفهم هؤلاء القتلة أن العقيدة لا تحتاج إلى دم لتثبيت دعائمها وإنما تحتاج إلى فكر وروح، وبعد جريمة المقبرة بدأ الدواعش بمسلسل لتفجير السيارات المفخخة وغيرها، كان أول هذه السيارات سيارة (بيك أب) وبعدها الجريمة البشعة جريمة شاحنة الطحين التي هدمت البيوت وقتلت

الكثير، أرادوا أن ينسى الناس مجزرة المقبرة لكنها كانت تنهض مع كل ضحية من ضحايا أهالي تلعفر، وأرادوا أيضا أن يصوروا للعالم أن أهالي تلعفر ناس ضعفاء لا يمتلكون الهمة للدفاع عن أرواحهم، وكلُّ هذه الجرائم تسعى لخنق الهمة عند الشباب لأنهم يخافونهم، فتراهم ينكلون بهم ويعتمون على كلِّ جهد يُقدَّم لأهل تلعفر، هناك جهود استثنائية وكبيرة من قبل وجهاء تلعفر، مثل الدكتور حسين جمعة، أحد تدريسي جامعة تلعفر، إستطاع تحويل البطاقة التموينية إلى محافظة دهوك، وأخذ على عاتقه تحويل الكثير من الجرحى للعلاج خارج العراق، وعالج الكثير منهم في مستشفى دهوك، في صبيحة يوم من الأيام انتشروا حول المقبرة وطوقوها وهم مرعوبون، والقسم الثاني راح يبحث عن أسماء المذبوحين من شهداء المقبرة لإلقاء القبض عليهم، انتشر الرعب بين الدواعش وأعيدت حادثة المقبرة سطوتها، وراحوا يبحثون عنهم في المدارس والمستشفى ويفتشون البيوت، وقدموا تحقيقات عن كلِّ مذبح من شهداء المقبرة، تزعم روايات الدواعش بأن النقيب عصام البياتي نهض من موته وقاد جميع المذبوحين للهجوم على تجمعات الدواعش وقتل عددا كبيرا منهم، وأكدت روايات الأهالي بأن الأشباح النورانية تخرج من المقبرة مع كلِّ سَحَر لتشن هجماتها في ثورة عارمة، ويقول بعض الدواعش إننا نسمعهم لكننا لا نراهم، يخرجون من المقبرة القديمة، وينتشرون بحثا عن تجمعات الدواعش، صار يحذر بعضهم البعض ويتداولون القصص المرعبة عن جيش الشهداء بقيادة النقيب عصام البياتي، واستفحلت (شغلة) البحث عن المستمسكات وذبح كلِّ من لم ينتم إلى القاعدة وداعش، إنتشر خبر جيش المقبرة ليصل إلى مركز المحافظة (الموصل)، أمر المحافظ بفتح ملف تحقيق وتخصيص لجنة كبيرة للتحقيق في قضية

الثورة والبحث عن الشهيد عصام البياتي وأصدروا أمر إلقاء قبض عليه، وقتله ثانية وحرق جثته وجثث بقية الشهداء ليخمدوا الثورة، ومن ضمن أعمال اللجنة الوافدة من مركز المحافظة شيّدوا سورا كبيرا للمقبرة واستدعوا أهل الشهداء وأقربائهم للتحقيق معهم واستدعوا جميع آباءهم ومطالبتهم بتسليم أبناءهم إلى الدواعش، من ضمن ما حققته المقبرة كشفت العلاقة القائمة بين المحافظ والدواعش، وأخذوا القضية على محمل الجد وأصدروا أمراً رسمياً بإلقاء القبض على كل من يحمل اسم عصام صغيراً كان أم كبيراً، وتطوّر الأمر إلى إلقاء القبض على كل من يقيم تعزية أو يوزع طعاماً على ثواب الأمام الحسين عليه السلام، أو يستمع إلى الأدعية ويرتدي في عاشوراء الدشداشة السوداء، والويل كلّ الويل لمن اسمه عصام، صاروا يخافون الليل ولا يمارسون أيّ نشاطٍ ممّا ترك عند الأهالي مجالاً لحرية التحرك والتسوق والسفر والنزوح دون سيطرات الذبح، شكل الدواعش عبر الجهات الرسمية أوامر محففة على الأهالي، بأنه جميع المنظمات المحلية والدولية تطالب بتسليم النقيب عصام البياتي، وإلا ستبقى الدور مهدمة ولا تعويض يشمل أهالي تلعفر، وقيل إن احد الدواعش سخر قائلاً:

بأي عقل تتبعون رجلاً مات قبل ١٤٠٠ سنة؟

فقالوا له:

أسكت وإلا يطلع عليك النقيب عصام فهو لا يقبل بمثل هذا الكلام.

سكت وانزوى خائفاً دون أن ينبس بكلمة، صار الدواعش يرفضون الدفن في المقبرة، مخافة أن يلتحق الموتى بجيش النقيب، وصار أهل تلعفر يهددون الدواعش

بجيش المقبرة الذي زرع الرعب في قلوبهم، قد يرى البعض أنّ مثل هذه الحكاية مبتدعة، وهي حقيقة وكان تفسير الدواعش بأنهم مجموعة من الجن، وهناك حكاية يرويها الناس، بأن الشيخ عبد الرحمن متزوج من امرأة سنية أمر الدواعش أهلها بتطليقها من الشيخ ورفعوا دعوى الطلاق، قيل لهم إن الشيخ على علاقة وثيقة بجيش المقبرة، وهو من أصدقاء والد النقيب فخافوا وتركوا الأمر كي لا يثيروا غضب الشهيد، ويُقال إن الدواعش كانوا يجمعون الأموال قسراً من الناس ويطالبون الأهالي ويسمونهم الزكاة، لكنهم استثنوا عشيرة البيات من ضريبة الزكاة، ولم تنته قصة جيش المقبرة إلا بظهور أبناء الحشد المبارك، الذي حرر تلعفر وأباد الدواعش إلا من هرب.

السؤال الصعب

كثيرة هي الأمور الغريبة التي تمرُّ على الإنسان، أمور عصبية لم يحسب لها الإنسان حساباً، لا أخفيكم سرّاً أنا عاجز تماماً عن استيعاب الموقف الذي مرّ بي أمس، كنت أرى ابني وكأنّ الحسرة تخنقه بما يضمّر في صدره من كلام، توقعت أن لديه حاجة ينجل أن يطلبها وهو الذي تعود على الدلال، لكن انكشف الموقف عن شيء أكبر من أن يقال، هل ابني يعيش هذا الكابوس حقيقة أم تراه افتعل الموقف ليثيرني؟ وأنا العاجز عن الحركة، شلل تام يجعلني بحاجة إلى مَنْ حولي، وابني لم يقصّر يوماً في مداراتي، لكنني كنت أسأل نفسي من أين لابني كلُّ هذا الحزن؟! من أين لأبني هذه الجراءة أن يحمل كلَّ هذا الجرح العاثر في قلبه؟! حاول أن يبرر ما فعل، وقال:

أنا اعتذر يا أبي إن كنت جرحتك، لكنّه سؤال صعب كان يفترض أنك طرحته على نفسك كثيراً، لا بد أنك واجهت به نفسك مراراً وإلا تكون قد تركت الأمور تأخذك على عواهنها، ولا تتحمل أن يجاورك ابنك فلذة كبذك فيه، كيف ستحاور الآخرين؟

صرخت فيه غاضباً أنا فرحت بأن ابني أصبح يحمل شهادة عليا، وسيكون

أستاذ جامعة ويخرج أجيالا للعلم والنور، لم يكن في بالي يوما أن تقسو عليّ بهذا العنف، عيب يا ولدي أن يجرح الولد أباه؟

أطرق الولد رأسه أرضا أبي أنا لم أقل شيئا سيء إليك، أنت أبي، أنت من أشرف على تربيتي وأعدني لأكون أستاذا جامعيا، جعلتني أدرس في أرقى جامعات العالم وأتيك بأكبر شهادة، السؤال يا أبي هو الذي جرحك، السؤال الذي كان لابد أنك قد سألته لنفسك كثيرا، وأجبت عليه بما تقتنع به وما يضمن رؤيتك للجواب، وعليك أن تتوقع أنك ستسأل به وأنت على فراش المرض أو ستسأل به أمام الله، انفعلت لان ابنك من سألك، كيف سيكون الحال حين يسألك الله سبحانه تعالى؟

يا إلهي، لم أكن أتوقع أن يوجه لي ابني تهمة القتل والإبادة ويجعلني مجرما في نظره، إسأل عن أبيك وعن تأريخه الحافل بالجهاد.

بابا، أنا سألتك مجرد سؤال، سؤال أقلقني كثيرا، يا أبي فإن لم أجد الجواب عندك، أسأل من؟، سؤال عذبي كثيرا يا أبي، هل على المجاهد أن يكون قاتلا؟

احترت كيف سيكون جوابي؟ كيف سأفنع هذا الولد الذي يعيش ترسبات فكر قد سمعها هنا أو هناك، وكان عليه أن يدرك مثل أبيه لابد أن يكون محسودا بما قدم من تأريخ جهادي طويل، وعنيف تحدى الكثير من الأمور، ومن هذه التضحيات هو جرحي الذي أفعدني عاجزا عن ممارسة الحياة.

أنا يا بني جاهدت من أجل ديني ومذهبي، ومن أجل أن ترفع رأسك بين الناس، وحتى إصابتي كانت في سبيل الله.

ما دمت في سبيل الله يا أبي لماذا تخشى السؤال إلى هذا الحد؟ هل تعتقد يا أبي مثل هذه الأعمال الكبيرة لا تستحق المراجعة والسؤال؟ ألا تحتاج منك وقفة مع النفس؟ ربما هناك حسابات لم تكن صحيحة، وكلنا بشر معرضون للسهو والخطأ والتفسيرات غير الصائبة أحياناً.

مثل هذه المحاوره غريبة على حياتي، لم أعود مناقشتها أو محاورتها مع أحد، كانت أوامر تصدر وقناعات معدة في القيادة، وابني الذي تفرغ للدراسة والبحث والمناقشة، عاد إلى تلغفر ليري ويسمع ويعيش الواقع، يعيش انعكاسات الأفعال الخشنة التي كُنّا ننفذها باسم الدين، مَنْ يدري ربما سيسعى ولدي لتكفيري، ويفكر أن يرشدني للطريق القويم حسب مفهومه، يريد مني أن أقدم ندمي مثلاً عن هذه المسيرة الحافلة بالجهاد، يتهمني بالقتل، أليس الله مَنْ أمر بقتال الكفار وإبادتهم؟ ألم يأمرنا بالغلظة بأمور ديننا، ربما هو يعيش اضطرابات نفسية مع روحه.

كُلُّ الذي يحتاجه أبي هو الوعي، وهذا الوعي لا يأتي عبر سؤال عابر، وإنما سؤال مثقف يحمل عار الانتفاء إلى باطل، وأبي كَلُّ أمانيه أن أكمل أنا سيرته الجهادية، وأن أكون مرفوع الرأس لأنني ابن قيادي في داعش، سؤال مني وأنا ابنه أصابه الوجوم وشعر بأننا غرباء عن بعض، ولو يدري ما هي الصورة التي أحملها عنه، ورطة كبيرة يعيشها أبي، ربما وعكته ومكوته بالفراش تجعله يشعر بالآلام الناس، عليه أن لا يغضب مني حين أحاوره، أبي الذي تحمّل كل هذا العبث لأعيش أنا بسلام.

أجبتة:

ليس الجواب صعباً إلى الحد الذي تظنُّه، لكنني استغربت أن يسألني ابني هذا

السؤال وهو ابن هذه النعمة نعم يا بني على المجاهد أن يقاتل الكفار أينما كانوا وهذا أمر إلهي لا بد أنك مطلع عليه.

ورحت أنظر إلى وجه ابني لأرى مجال التأثير فيه، وهذا كل ما عندي من جواب.

أجابني ولدي:

يا أبي كن هادئا، والله ما قصدت أن أجرحك، لكنني أردت أن أتباحث مع أبي في أدق أمور حياتنا، ومثلما كان حلمك أن ترفع رأسي بين الناس أنا أيضا حلمي أن أراك مرفوع الرأس بعيدا عن أي شائبة، كيف بي وأنا أحمل أسئلة كثيرة وربما تكون موجهة؟!

اسأل:

أبي من فوض لكم أمر الحكم بتكفير الناس؟ ومن يقول لك إنهم كفار؟ وهل هم بحكم الدين يستحقون القتل؟ وهل الدين يسمح لكم أن تحكموا بين الناس بأمزجتكم ورغباتكم؟ كل من لا يؤمن بما لا تؤمنون هو كافر يستحق الموت، ومن نحن يا أبي لنحكم على الناس بالموت؟! نسلب منهم الحياة التي وهبها الله لهم، نسلبها وبطرق بشعة لا رحمة فيها.

بقيت لا أعرف ماذا أقول له، أطرقت رأسي إلى الأرض وفي ثورة تهز الكون، أصبح ابني الوحيد هو من يرميني بهذه الأسئلة، أنا مؤمن تماما أن ابني يستحق القتل، لأنه يشك في الجهاد الذي أحمله يقينا، تفتعل في نفسي ثورة هائجة، هذا العوق

اللعين الذي أعاني منه، يجعلني عاجزا عن ردع ابني، لم يكن حلمي في يومٍ من الأيام أن يحمل ابني مثل هذه الأفكار الملوثة باسم الثقافة، إحساس مؤلم أن يتعد ابني عن الدين بهذا الشكل المروع قلت له وأنا أحمل أقسى لواجع الصبر في داخلي.

بني نحن أناس أهل مبدأ ويقين ولا نقبل أن تتسرب لأفكارنا مثل هذه الهواجس المرعبة المهلكة، مَنْ علمك مثل هذه الأسئلة؟ مَنْ؟ الهواجس المريية كفر.

هل أستحق بعرفكم التفجير وقطع الرأس مثلاً، وهل ستفخن جثتي يا أبي كي انفجر بك حين تحملني إلى قبوري؟

أنت تسخر منا نحن الذين دفعنا دمنا وأرواحنا كي تعيش أنت وأقرانك برؤوس مرفوعة؟

نعم يا أبي أنعم الله عليكم بالخير، وكان هذا الجهاد يحتاج إلى تمويل من دول خارجية وجهات دولية وسياسية، أيّ تمويه خطير أن نتصور أن الجهاد يبيح لنا القتل والسلب والنهب والتهجير، بأيّ حق يا أبي تقطعون الماء عن بيوت وعوائل تشهد أن لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله، بأيّ دين تقتلهم عطشا وباسم الدين؟!

صحت به بغضب وأنا أتنفس بصعوبة، اشعر به يقطع قلبي هل تريد أن تقتلني؟ هل كنت تقول هذا الكلام حين كان يصلك مصروفك كاملا، تأكل وتشرب، وتدرس وأقساط التدريس الخاص، تصلك لحد جيبك؟

هذه الأمور تعرفت عليها بعد عودتي إلى تلعفر، كان الذي يصلني من معلومات

بأنهم يذبحون أولاد عمي، وإذا أكتشف أن أولاد عمي هم الذين يذبحون بالناس،
أبي أيعقل أن نقطع الماء عن قوم يشهدون الشهادتين، أبي أنا اسمع بعض الشباب
يفتخرون ببطولاتك.

وأنت ألا تفتخر بجهد أبيك؟

أبي أيُّ جهاد هذا الذي يقتل سيّدا من نسب هاشمي، يخرج أحشأوه ثمّ يفخخ
الجسد كي يقتل أباه، يا إلهي وتفخرون بها؟ هل ستقتلني يا أبي؟ يبدو أنك لو كنت
تمتلك عافية الجريمة التي تسميها جهادا لذبحتني هل كنت تفرغ أحشائي؟

أخذتني لحظتها رعدة الغضب، والحنق على ابني، لم أكن أتوقع منه هذا الموقف،
عليه أن يحسب حسابا لحالتي الصحية، أن يحترم وجعي، إنه يسحلني إلى موتي.

صرتُ أتمنى الموت.

والله أنا الذي تمنيت الموت يا أبي منذ أول مجيئي إلى تلعفر، ثق يا أبي إنكم
أصبحتم في نظر الناس مجموعة قتلة تسلبون وتنهبون، كم إنسان جعلته يعيش
بالخوف يا أبي؟ كم إنسان أغويته بالقتل يا أبي؟ أنا أدعو لك بالتوبة وأن يغفر الله
لك تلك الجرائم البشعة، أولاد عمي يصفوك بالشرس قاسي القلب الذي لا يرحم.

أبي لم يعد الموت يهمني، لأن الأسئلة التي رأسي تذبحني، ماذا فعلتم بتلعفر؟
بناسها؟ بأهلها؟ وكم دفعت لكم السعودية؟ هل ذهبت للحج، لتحج بيت الله
الحرام، أم ذهبت لتأتي بالتمويل يا أبي؟

صحّتُ به:

لقد جنيت عليّ، نحن كنا نقاتل الأمريكان، وهل ترى عيباً في أن نقاتل محتل بلادنا؟

أبي أحدثك بكل هدوء يا أبي ولا أريدك أن تنفعل، لأن القضية ليست قضية تبريرات ونكذب على أرواحنا كي نستريح، أنا أريد لك السكينة والهدوء، وراحة البال، وهذه لا تأتي إلا من خلال صفاء الوجدان وطيب الخاطر والضمير، ورضا الله يا أبي، الذي أعرفه أن ناس تلغفر وأهلها كانوا معكم ورحبوا بجهادكم ضد الأمريكان، لكن بعد شهرين أصبحتم مع القوات الأمريكية تقتلون الناس، ولذلك كان أيُّ مجرم من الدواعش يلقي القبض عليه من قبل الناس والشرطة يطلق سراحه. يبدو أنك تأثرت بهم، فهم يقولون نفس هذا الكلام، بنبي هؤلاء ناس كفار.

من كفرهم؟ أتعرف يا أبي كنت أحلم أن أراك مثلما كنت تحمل ألق الأبوة، تستمد من هالة هذا الحنان، محبة أطفال الناس، كنت تحب أصدقائي لم تسألني يا أبي يوماً هذا من أي مذهب وطائفة ودين، أصدقائي كانوا يحسدوني لأنني أملك أبا يجب الناس، هل أصبحت (الخبزة) صعبة يا أبي إلى الحد الذي صرنا نأكل الخبز الحرام، خبزاً مُدافاً بدم الأبرياء، أنا احبك يا أبي، لكن الأسئلة كثيرة وأنت لا جواب لديك.

أيعقل أن يصل الحال بأن بعض النساء يلدن على الأرصفة، يا الله، أيُّ غيرة سمحت لناسي وأهلي ورجال عشيرتنا وأعمامي وأخوالي، أيمن أن يصل الجور إلى أن نمنع الناس من دفن أمواتهم؟

لا يا بني لا تقسو عليّ، واعرف أن للحرب ظروفها ليس كل ما تسمع به هو حقيقة، ماذا تريدني أن أقدم لعدويّ، عصير الليمون، فكر بعقلك يا بني ولا تفكر

بعقل غيرك، هذه الأمور أنت سمعتها لكنك لم تعشها، لم تعش وحشية الواقع، لو لم نقتلهم لقتلونا، وعليك أن تراجع ما يدور في ذهنك وأن تقول لنفسك لكل خطوة ظروفها.

يا إلهي، كم كان الموقف قاسيا على أب يتهمه ابنه بأنه مجرم وطريق الجهاد كان وهما، أتمنى أن اسمع ما يقول داخل أنفاسه الآن.

أتمنى أن أهدئ موقف أبي، لأني أريد أن أبين له الأخطاء الكثيرة التي اقترفوها، هذه الثورة الانفعالية لا ترضخ لمنطق العقل ولا يمكن لها القبول، صرت أرى البيت مقبرة، وفي الحوار أمور كثيرة لا أريد أن أثيرها خشية أن أفقد أبي، مشكلتي أن لأبي أوهام كبيرة، لذلك سيتصور صمتي أمامه عجز عن الجواب أبي وأنا أعرفه.

ها يا بني أراك سكت؟

سكت احتراماً لانفعالك، هل أنت متبته لنفسك يا أبي؟ تصف حربك وكأنك تشنها ضد جيش وجبهة قتال، أنت يا أبي كنت تقاتل بيوتا وعوائل وناسا تغمض في الليل بأمان الله، تقاتل ناسا لا يملكون سوى الدفاع عن أعراضهم وبيوتهم، ولماذا اعتبرتهم أعداءً أساساً يا أبي؟ أنتم استقبلتم مقاتلين مرتزقة من دول متفرقة وما احتملتم أبناء مدينتكم، البيوت أبي لها حرمتها، هل يعجبك هذا الخراب والدمار؟ أصبحت تلغفر مدينة منكوبة، منازل مهدامة وشهداء وجرحى، أبي كيف يسمح لكم دينكم هدم مساجد الله والحسينيات والجوامع وآلاف القتلى، أيعقل يا أبي ما فعلته؟ ما هو شعورك يا أبي لو حدثك أحدهم بأن أباك حرق النساء؟ وبأن أباك ابتز الدين باسم الدين؟ وأن أباك هدم مسجد الإمام الصادق وأرسل انتحاريين

ليفجروا صلاتهم فهم يا أبي يقولون الله أكبر وهم يصلون، وأنتم تقولون الله أكبر وأنتم تقتلون وتذبحون وتحرقون.

ما الذي تريده من أبيك بعد الذي قلت؟

أنا لا أريد الانتقام منك أريدك أن تتوب لله مما عملت، وأن تستغفر الله، اليوم عادت تلغفر بناسها وأنت في سريرك وقرب رأسك أدوية متنوعة، وتحاليل، وأغلب الأطعمة ممنوعة عليك، تتمنى أن تأكل (خبزة) لتشبع.

الهاجس التي تدور برأسي قد زادها ألماً وتوجسات جديدة أرهقني بها ابني والخوف يكاد يقتلني وفي كل لحظة أتصور أهالي المذبوحين سيدخلون عليّ ويحرقونني وولدي الوحيد، يدفعهم الغضب أن يتجاهلوا عوقبي ويحرقوني، ماذا أفعل الآن، هل أسافر؟ إلى أين؟ ومن أين لي الحيل لأسافر أنا أتمنى الموت، ماذا يريد مني ابني؟ هل يريدني أن أخرج للناس وأطلب السماح؟!

أبي تحمّلني يا أبي، هي جرائم تجاوزت حدود المراضاة، لقد تركت الكثير من الندوب في قلوب الناس، الآن عليك أن تستغفر الله، أن تهجع وأن لا تبقى تفتخر بالجرائم على أنها صفحات جهاد، تعيد وتصقل بها وتتلذذ بالقتل والذبح والحرق، أبي أنت إلى اليوم تفتخر بما فعلت ما رأيتك يوماً نادماً على ما فعلت أنت حزين يا أبي لأنكم خسرتم الحرب، انتصرت عليكم تلغفر، عادت بناسها وأنتم هرب من هرب وقُتِلَ من قُتِلَ، إندم يا أبي، كي تستطيع أن تطلب التوبة، ليكن زادك طلب المغفرة يا أبي، عسى يرحمنا الله، لا تنظر إلى قساوتك وفعلك أنظر إلى رحمته وحينها مهما صعب السؤال سنجد له جواباً في حياتنا يبعث الطمأنينة قبل الرحيل.

حكاية جامع

لكل مكان حكاية، تغزل خيوطها الألفة والحنين لمسيرة الحياة، وحكايتي حكاية إنسان يعيش في مدينة تلعفر، ظلَّ ينبض قلبه العامر بالحياة رغم كل المآسي التي مرت على رأسه، كان حلمه بناء جامع يجمع الناس للصلاة وهل تلك أمنية صعبة المنال؟ وقصة بناء الجامع صارت قصة من قصص تلعفر المأساوية والتي دونتها ذاكرة مدينة ترحب بمن يقرأ سطورها، كل الناس الذين كانوا يفرحهم وجود هذا الجامع حملوه هوية وانتماءً، كانت أقرب أمنيات الحاج عسكر آل ملا، وحلم حياته أن يقوم ببنائه، وهكذا ولد الجامع حلماً كبيراً وجد الحاج نفسه فيه وفي أحلامه وغيرته وأصالة انتمائه، فهو فرحٌ لان الجامع أصبح في مسار الحقيقة ولد وكبر بين يديه، ورفعوا لافتة العنوان بزهو (جامع الإمام الحسن العسكري عليه السلام) شعر بالفخر أن يكون قدم شيئاً مهما للناس ليحتوي أحزانهم وأفراحهم عاشوراءهم وأعيادهم، يعيشون فرحة اللقاء والجامع يجمعهم على حب الله ويرفع منارته فوق سماء مدينة تلعفر، أعتقد أن الأسماء والعناوين لها دلالات على التكوين النفسي الإنساني، وانعكاسات شخصية الإمام الحسن العسكري عليه السلام كرمز من رموز الثورة يشكل عنواناً من عناوين التحدي والمقاومة صارت السلطة تخشاه في كل زمان ومكان، تخشى سلطات الجور هذه

العناوين المباركة، وجميع الثورات كانت تعزى إلى وجودهم المبارك، كل الأصوات المطالبة بالعدالة والسلام وسلامة الدين والوجدان تعلق على طيف حضورهم التقى النقي، إذا أطل الماضي بأبعاده الداكنة ستتعرف على أهالي تلعفر بما يحملون من ألفة وفرح وحياء عاشوها مفعمة بالمحبة، كان الناس للناس، وأغلب ناسنا يرفضون سلطة الطواغيت، ويعدون الرفض من أولويات حسن التبعيد لله، عندهم الدين أمانة والخضوع لعروش الدم إهانة للعرض والانتفاء، ولهذا رفضت سلطة البعث الجائر اسم الجامع وعنوانه، رفضت أن يرفع اسم إمام من أئمة الإسلام الحقيقي على جامع، ورفضوا قبول البناء وأوقفوا العمل، إلا بشرط تسليمه إلى الوقف، رفض الحاج عسكر فقد، كانت أمنيات ناسه وأهله أن يعلو اسم الجامع براية إمام معصوم وأن لا يكون أسيرا تحت يافطة أزام البعث المقبور، من رجال الأمن والاستخبارات وغيرهم من أجهزة النظام الخائر، فقد كانت الجوامع كلها تحت إمرتهم، ولهذا توهج الصمت في مئذنة جامعنا، الناس يحملونه في قلوبهم قبل أن يُشيد على الأرض، العديد من الاعتقالات التي تعرض لها الحاج عسكر بسبب وجوده المناهض لهم، وكأنهم لا يعرفون أن أرضنا لم تكن رخوة بل نحن ناس انحدرنا من صلب علماء تركوا بصمات واضحة في تاريخ تلعفر مدينة السلام، إعتقالات كثيرة تحاكم من يقيم مجلسا للعزاء، الممنوع يمد سطوته والمجالس لم تطفئ مشاعلها، سقط النظام، وانتهى الفصل الأول من حكايتنا، توهج الفرح بسقوط الطغاة ونهض حلم عودته إلى الحياة، أحسست بأمنيات الحاج عسكر وجماعته تتفتح يقينا ومع أول الغيث شراء قطعة أرض لغرض بنائه، فرح الجميع بأن الجامع سيعاد بناؤه لكننا قلقنا على الحاج عسكر وأهل الطيبة والمعروف الذين معه، تغلب عليهم البكاء والدعاء، قيل

إن البكاء رصيد معنوي عاطفي وكان بكاؤهم إلى السماء أقرب، إنتشرت عناصر القاعدة وبدأت سيطرتهم على المنطقة و(الله أكبر) التي يطلقونها غريبة عن (الله أكبر) التي نسمعها من الجامع، لم لا تقال إلا مع القتل والذبح والتفجير، الله أكبر دون هذا القتل والدمار، الله أكبر مع دمعة المظلوم والمقهور، الله أكبر مع (خبزة) الفقراء، وليس مع هؤلاء القتلة، ليس فيهم شيء ينتمي إلى الله، وإذا بمنشوراتهم تندد بوجود الجامع، لافتة كبيرة رُفعت (يمنع بناء الجامع) ولافتة كبيرة تهدد حياة الحاج عسكر (مصيرك مجهول يا عسكر) ومع أن الجامع لم يكتمل بعد، لكننا كنا نرفع شكوانا إلى الله فهو الأقرب، أيعقل أننا في بلدنا وبين ناسنا ويمنع علينا بناء جامع؟! إلهي إحفظ تلغفر واجعلها ترفل بالأمان، ليس بإمكان أحد أن يقايضنا الحياة، تصریح الحاج عسكر أمام الناس:

الجامع ليس ملك أحد، لذلك لا بد من المحافظة عليه، تطوّر الناس لحمايته، صرنا نتأمل التهديد من جانب والحماية التي تطوّر بها الأهالي بجانب آخر، إلا أن الذي حدث أكبر من التطبع والتأقلم والمعاشة، هجوم في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، هجم عناصر القاعدة ومعهم كيس كبير فيه متفجرات يريدون تفجيره، ما الذي فعل بهم؟ جامع من جوامع الله، بعد أن جعلوا منها مشاجب سلاح ورحبة من رحب القتال، أو مثابة تنطلق منها هجومات الاعتداء على الناس الآمنين، فيهم من يسأل:

لم هذا الجامع مستهدّف دون غيره؟

ومنهم من يرى أنه يمثل كرامتهم وكلمتهم، إذا استجابوا لهم بتهديمه وإزالته

فلن تبقى لهم كلمة، لا أستطيع أن أقول أنهم انقسموا حوله قسمين لأنها كانت مجرد تساؤلات، فمن يُبتلى بعلّة ليس أمامه سوى التساؤلات وبعضها يصل استفهامه لحد الزيف، بعد ذلك حصلت اشتباكات بين أهلنا والأعداء، والأحوال أصبحت لا يستهان بها ولا أحد من الحكومة يهّمه أمرنا بشيء، يبرر أحد الدواعش:

الجامع ليس أهم من الإنسان؟

ولا ادري من أجاز له قتل الإنسان كي يقيس أهمية قتله مع هدم جامع؟ الجامع كرامة الحياة، توقف الاشتباك وهرب الدواعش وقد عرفناهم واحدا واحدا، والذي أُصيب حمل جرحه ولاذ بالفرار، أيعقل أن يكون هذا الجهاد والتضحيات فقط لأن بيتا من بيوت الله يتنفس الحياة، تأخذني حرقه الحكاية، الجوامع ملك السماء، أكررها دائما كي تبقى في يقينهم أنها ملك الله وليس ملك البشر، فما الذي يريدُه هؤلاء الأوباش، بدأت التفجيرات تتوالى، لم تكن هناك حكومة والقوات الأمريكية أبلغت الناس أنهم يريدون تفجير الجامع، سيارات مفخخة، والأمريكان أخذوا معهم كيس التفجيرات التي يريدون تفجيرنا بها، كانت أمنية الحاج عسكر أن يسمع الأذان من منارة الجامع، والمنشورات توزع لتعلن أن دم الحاج مهدور.

(سنقوم بقتلك بعد الآن يا عسكر)، المشكلة أنهم عازمون على إنهاء وجودنا ووجوده الذي ارتبط بوجودنا، كلُّ هذا العداء لأن اسمه جامع الإمام الحسن العسكري عليه السلام، يخيل لي أحيانا أني في كابوس وإلا ما حدث لا تحتمله الحقيقة، نحن في قلب النار يريدون أن يزيلوه من الوجود، وذات فجر بعد الصلاة حصل هجوم بواسطة خمس عجلات، يا إلهي، خمس عجلات وأثناء صلاة الفجر، رعب كبير

أصاب الناس، هؤلاء الناس لا يعرفون الله، ولا علاقة لهم بأي دين، أسأل نفسي أحيانا هو جامع وكلُّ هذا الأذى الذي عانيناه، ماذا لو كان كنيسة؟ المصلون ناس مسالمون، لا قبل لهم بصد هجوم جيش من المرتزقة، صرنا وجهاً لوجه مع القتلة وبين أحضانه استشهد الحاج عسكر، كأن الموت وُلد في أعماقنا بساعتها، الله أكبر قتل الحاج عسكر نداء نرفعه إلى السماء، المنارة تعلن التآبين ونحن نرفع نعشه وسط تكبيرات الرجال ونحيب النساء؟ يا إلهي ما أبشع القتل حين يُقتل مسلم باسم الله ويفجر بنداء الله أكبر، إستيقظت كلُّ الآلام، الحروب وفواجع القتل، لا يقلُّ أحدكم: واقعة الطف انتهت، واقعة الطف تمتد إلى مالا نهاية، واقعة الطف ليست بين مذهب ومذهب، بل هي بين الخير والشر.

أحداث وضعت بصماتها على سيرة الحياة هنا، وبدأت براكين حقد جديدة تتأجج كون الجامع ما زال على قيد الحياة، يبدو أن الأذان (الله أكبر) قضية توجع الإرهابيين، (الله أكبر) التي نعلنها غير (الله أكبر) التي تصدح بها حناجرهم عند القتل والذبح والتفجير، أصدر العتاة تلميغات كثيرة منها ممنوع الصلاة، منعوا الوقوف قرب الباب، وردت التعليقات من مرتزقة القاعدة:

(يمنع الوقوف عند باب الجامع، يمنع البيع والشراء وجميع المستلزمات الضرورية مع عائلة الحاج عسكر) أول شهيد من شهداء تلعفر، القوات الأمريكية هي الأخرى أصدرت أمرا بإخلاء تلعفر والكل غادر إلا عائلة الشهيد عسكر وبعض المستميتين بالدفاع عن الجامع الذي صار حكاية من حكايات الجرح، ولا بد لهذا الإخلاء من أمر، وتبين الهدف الأساس هو تفجيره بالكامل، كان أولاد

الحاج عسكر ومحبوه يقاتلون دفاعا عنه وعن وجوده الذي ارتبط عندهم بهوية الدين والوطن، الدخول إلى رحابه يشبه الدخول إلى ميادين الحرب، أيعقل أن يكون وجوده مدمراً لهم إلى هذا الحد؟! إلى حين انتبعت الحكومة المركزية فأرسلت حماية مكونة من ثلاثين مقاتلا من الشرطة الاتحادية لحمايته، والهجمات متتالية عليه والجميع يقاتل من أجل حياته، إرادة مصممة للوصول إلى غايتهم، وحين عجزوا عن المواجهة قرروا الغدر وحاولوا إدخال حزام ناسف اليه لولا ستر الله، عن طريق اتصال هاتفي من امرأة، احذروا إرهابي سيفجر نفسه داخل الجامع، ولم تكشف المرأة عن هويتها، وانفجر الإرهابي بعيدا عن أذى الناس ثم وضعوا قنصا يصطاد المصلين، وكان النزوح القسري فتركوا المدينة أخيرا تحت التهديد المباشر، وتركوا جسد الجامع المتناثر أشلاءً مع صوت التكبير (الله أكبر).

الثواب

أتيت بكيس جمعت فيه تراب من مقابر الشهداء، عبأت فيه تراب حي الوحدة صاحب أشهر تفجير على مرّ الزمن، ومن كل حي قبضة تراب، وأشياء كثيرة جمعتها لك في الكيس، مثلاً عويل الثكالي من أهالي تلعفر وأنين الجرحى وبعض ماء من بئر علو والفسحة، إحتار بهما العالم وعدهما من أبشع جرائم التأريخ، أربعة آلاف شهيد يرمى في بئر علو وخمسة آلاف شهيد في الفسحة، يقول مهندس إيطالي وهو يبكي:

هؤلاء وحوش لا أعرف بأيّ قلب يعيشون؟

كلُّ شهادات الشهود جمعتها لك في الكيس، ووضعت لك (تين) تلعفر المشهور وعنب وorman تلعفر المميز بالطعم، ولماً أبدا فقد وضعت لك تأريخ تلعفر وثوراتها والحركات الوطنية، تذكرت قد وضعت لك كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي ورحلة حميد مطبعي وحديثه الشيق عن جدول (صوباش) وكتاب مختصر جغرافية العراق لرؤوف عيسى، وكتاب العراق قديماً وحديثاً للمؤرخ المرحوم عبد الرزاق الحسيني، وحديث الجسور الستة، وأحلام الناس بجعل تلعفر محافظة وكاتبة تحلم أن ينشأ مشروع يربط وديان تلعفر بنهر دجلة ليمرّ بالقلعة، وجعل القلعة مطلة

على النهر، ستكون أرقى مدينة سياحية بالعالم، ووضعت لك في الكيس حسرتها عند هدم القلعة، ووضعت لك مجموعة من مؤلفات أهل تلعفر مثلا كتاب فهمي سعيد الشيخو وكتاب مها حسن خلو وبعض شخصيات تلعفر من الشهداء، كلها وضعتها لك في الكيس، وبعض المعلومات التي قد لا تعرفها، هل تعرف أن فكرة جعل تلعفر محافظة طرحت إداريا عام ١٩٤١ ميلادي؟ كل هذه الأشياء وضعتها في الكيس لأنثرها على قبرك للثواب، ومعها أشياء لا تتوقعها سأذكرك بها حين أصل قبرك، الذي يقلقني هل سأجدك فيه كبقية الموتى أم ياترى لك حساب خاص؟ قبرك يوحى بأن لديك مَنْ يزورك، وهذا ليس غريبا إطلاقا إلى الآن هناك مَنْ المسلمين من يترحم على معاوية ويزيد، ويعد عمر ابن سعد أحد قادة الإسلام، ويقال أن عمر بن سعد بكى ندما، وأنا لا أصدقها؟ وأنت هل ندمت يوما، هل بكيت أم أنت لا تعرف ماذا فعلت؟ وأيُّ ذنب اقترفته بحق أهالي تلعفر وناسها وأمانها، يا صاحب القبر ال... لا حول ولا قوة إلا بالله، أنت أول من حرص على قتلنا حين وجهت رسالتك إلى كل مجرم رسالة حقد:

(إن أهالي تلعفر شوكة في عيوننا فاقتلوهم، أيدهم عن بكرة أبيهم ولا تبقون لأهل هذه المدينة باقية) هل تعرف مَنْ أنا؟ طبعا أنت لا تعرف سوى ملك الري، وحقد القتل والإبادة، يغيضك إيمان أهل تلعفر لذلك ابتكرتم ذبح الرؤوس ورفعها على الرماح والحراب، يفتنكم الرأس المذبوح، بأيِّ دين وردت شرعية قبول الذبح بتكبير الله أكبر عليكم؟ ترفعون رؤوس المذبوحين وتركلوها بإقدامكم، أنت لا تعرفني ولهذا سأعرفك بنفسي، أنا مواطن تلعفري كان من طبيعة عملي زيارة كل المناطق المنكوبة ورأيت بعيني الولايات التي تعرّض لها أهل تلعفر، أتدري يا شيخهم

أن على وزرك تقع مسؤولية التحريض على شعب آمن؟ أنت من يتحمل وزر هذا الموت وهذا الدمار حرّضت الخارجين على الدولة والمجتمع من الذين لا مكانة لهم في المنطقة، لذلك توجهوا إلى هذه التنظيمات، من يقتل عشرة أشخاص يكون أميراً عليهم، طبعاً أنت سيد العارفين في هذا الشأن تعرف أن تنظيم القاعدة بدأ عندنا عام ٢٠٠٥ ميلادي وأصبح المواطن مجرد ان يخرج من منطقته يُقتل، يا إلهي، كيف يتحمل قبرك كل هذه الجرائم البشعة؟! نعم، أنت تتحمل وزر معاناة تلعفر:

هل أحدثك عن تفجير حي الوحدة؟ أنا متأكد من أنك فرحت به كثيرا لأن التفجير كان من أشجع جرائم التاريخ.

هل تعرف أنك غلبت كل طواغيت الأزمنة المرة، وما زال القبر مكتوباً عليه، الشيخ المرحوم، شيخ على من أنت؟ وأي رحمة ترجوها؟ عجلة مفخخة بشاحنة محملة بالطحين بدل أن تشبعوا الفقراء قرية لوجه الله صرتم تفجروهم! إلى اليوم هناك آثار بالمنطقة لهذا التفجير، يبدو أنني أتحدث مع قبر مات قبل صاحبه! لا بأس وصل الحال يا شيخهم أننا نتعرض للقصف بشكل يومي، بعد وقت الظهيرة إلى المغرب، انتبه نحن لسنا جيشاً، ولسنا تنظيمياً وسرايا، نحن عوائل وبيوت نساء وأطفال ورجال كبار السن، وأتم توليتمونا تفجيراً وتفخيخ عجلات وأحزمة ناسفة، ومع كل هذا كانت تلعفر مثلما وصفتها شوكة في عيونكم، هل أحدثك عن تفجير دورة القلعة؟ أوحدثك عنه أنصارك وأعوانك، أو ربما أحد المظلومين انفجرت دمعه خطوات فمشاها إليك، كانت تلعفر بلا ماء، أحكموا التفجير عند الماء كي يقتلوا العوائل، ثم أحرق الجثث، يا لبشاعتهم المعفرة بالتيه، رأيت بعيني بدل أن يرويه الماء، أحرقتهم النيران، أتسألني عن الانفجار؟ نعم، حدث

بعد رحيلك بستين، وذنبك أنك وجهتهم وحرصتهم على تلعفر وأهلها وجعلتها شوكة في عيون المسلمين، أظن أن مقبرة السحاب بعيدة عن لعنات الأهالي والناس، الدعاء لا تمنعه الحدود يا شيخ، كانت ضحايا الانفجار بدورة القلعة ثلاثين شهيدا وضحايا من الأطفال وجثثا لم يُعثر عليها، كنت أنت مصدر الدعم الخارجي لهم تتسول في الدول لتقوي شوكة الجريمة، يُقال عن الطيب: الله يذكره بالخير، وعن الشرير اللهم لا تجعل له ذكرا، والموتى رحمهم الله، وأشرار التاريخ عليهم لعنة الله ونقمة الدائمة، يا شيخهم، نحن عدنا إلى ديارنا، عدنا الى تلعفر الحبيبة مرفوعي الرؤوس، والتقينا بالجميع، وكل له عذره وأسفه، البعض كان عذره مقنعا إلى حد ما بالتخلي عنّا والقسم الآخر غير مقنع لكن كلُّها بعين الله، كان الخوف الذي زرعتموه في قلوب الناس يجعلهم ينقسمون على أنفسهم، انا جئت إلى قبرك كي أخبرك بأشياء لا يخبرونك بها، لأنها تعني هزيمتهم، أهلنا في وسط وجنوب العراق استقبلونا ولم يقصروا بشيء، كانوا يريدون لهذه الشوكة أن تعود، عدنا الى تلعفر لتعايش، ونعمر الحب والسلام للا فرضية العين والشوكة يا شيخهم، جئت إليك ومعني كيس الثواب أوزعه على قبرك، هلا استطعت أن تمدد من روح الإسلام صوت المحبة وتقول لهم اعتنوا بأنفسكم؟ واعتنوا بتلعفر المظلومة هي قلب العراق، إذا كنت تعجز وهذا طبيعي فاستمع من قبرك لصوتنا الساعي لتوحيد تلعفر الحبيبة:

عمروا كل شيء تعرض للهدم والأذى، وأما أنت يا شيخ ستبقى لعنة بضم التأريخ، سأذهب وأترك عندك الكيس بما فيه من ثواب.

وَحْزَةُ قَلْبٍ

شعرت بوخزة في القلب، الشعور بمثل هذه الوخزات يجعلني أتوقع مشكلة ما ستحدث، شعور يتنبأ وقوع الحادثة، ويجعل الجسد يرتعش من الرهبة والقلق، أتممت الرحلة الجوية ونزلت من الطائرة بسلام وتوجهت لشعبة تدقيق الجوازات، ومع هذه الوخزة المؤذية صرت أنظر إلى الناس وأنا أتمتع بأجواء الصخب، ناس تغادر وناس تطير على أجنحة الفرح للعودة الى وطنها، وأغلب العراقيين يسافرون إلى سوريا من أجل زيارة مولاتي زينب عليها السلام، أيقظني فجأة صوت المدقق:

عليك خط أحمر

نعم؟ لماذا خط أحمر؟ أكيد هناك اشتباه؟

وخزات القلب مجربة عندي، تجعلني على ثقة أن هناك كارثة ستقع لي وليس هناك كارثة أكبر من الخط الأحمر على الجواز وفي سوريا، قد تكون وخزة القلب تعني الإفراط في القلق أو ربما زيادة في التوتر والخوف، على كلِّ حال هو توقع أن أمراً ما سيئاً سيقع لي.

أكيد هناك اشتباه.

رفع النظارة على عينيه وراح يتفرس بي تارة ينظر الى الجواز وأخرى يرفع رأسه
إليّ ليقرأ ملامح القلق.

عليك أن تتوقف قليلا.

ماذا تعني؟

إنتظر قليلا.

احتمالات كثيرة تغزو الإنسان في مثل هذه المواقف الضاجة بالحياة، بالترقب
والقلق والخوف، وإذا بي مطوقا من قبل رجال أمن المطار وتمّ تحويلي إلى مديرية
المخابرات السورية، صرت أنتظر في النظارة وهذا يعني أنني صرت موقوفا وربما
عندهم أنا هارب من العدالة، طال بي زمن الانتظار لساعات، حان وقت مقابلي،
دقق المحقق بوجهي بشكل مبالغ فيه ليزيد من قلقي، ويقرأ من الخوف الكثير من
الأمور التي تشكل عنده حدسا.

لدينا معلومات مؤكدة عنك وعن تحركاتك....

أنا؟

نعم أنت، القائد التلعفري العتيد.

أنا؟

أولادك قاموا بتفجير أنفسهم؟

على القلق أن ينتهي الآن، على التردد والخوف أن يتنحى جانبا، لأن المواجهة

تعني أشياء أخرى، تعني على الإنسان أن يدافع عن نفسه ليظهر الحقيقة أمام هؤلاء الناس الذين يتعاملون مع ورق، ورق لا ضمير له، عليّ أن أكون حازما مع المحقق ماذا تقول؟ إنتبه أرجوك فأنت لا تتحدث عن قضية شخصية أمامك قضية شعب وأمة عانت الويلات، أنت لست أمام قضية شخصية.

قال المحقق-

أنا ساترك المجال لتقول كلّ ما عندك لكن عليك الاجابة عن سؤالى أولا، هل قام أولادك بتفجير أنفسهم.

اعتقد أن المحقق يريدني أن انهار أمامه، يستفز أعصابي، وهو يتحدث معي بهذا البرود، هذا يعني محتنا في الخارج أكبر من الداخل، والمؤامرة أكبر من توقعنا، ولو كنت أعرف ذلك لما غادرت العراق أساسا، لاشيء أملكه أمام هذا المحقق سوى حقيقتي وهو لا يعرف أي شيء عن حقيقة هذا المدوّن الذي يعتمد عليه قلت له بهدوء.

أيها المحقق مثلما قلت لك القضية أكبر من أن تكون شخصية، أمامك أوراق مزورة من أناس لا تعرفهم، وأمامك أيضا إنسان بدم ولحم ومشاعر ممكن أن تعرف منه الحقيقة.

نظر إليّ وقال:

نعم، أنا أريدك أن تحدثني بالحقيقة، المعلومات التي عندي تقول بأنك رجل إرهابي، تقتل أولادنا هناك ولديك حمايات تقتل بالناس، وأنت ضابط في الجيش

العراقي السابق، وأنت المجرم الذي تأتيت فتاوى شرعية بالقتل.

كلام يصدّم وخاصة حين يلبسك موقف لا يحمل الحقيقة ويقلب عليك الأمور كلها، فهل يستطيع هذا الرجل أن يقف عند منهل الحقيقة أم سيتعامل مع الموضوع تعامل روتيني؟

أيها المحقق إن كنت تريد الحقيقة فاسمعها مني، لا من هذه الأوراق التي زورت الحقائق، وقلبت المعادلة، عليك أن تعرف أن هذه المسألة ليست مسألة شخص كتبوا ضده شهادة زور، إنما هم زوروا القضية برمتها، إنك أمام إبادة شعب وأمة، فإذا تريد قراءة الضمير دعك من الأوراق المزيفة.

تنبّه لي المحقق وأعاد النظر إلى الأوراق، وقال:

أريد أن أنصفك لأنني أشعر بأن الأوراق فيها ما يربك، والغايات المطلوبة تعني دمار إنسان وسأسمعك، لأعرف منك الحقيقة، كثيرة هي التقارير التي تردنا وكلها ذبح وقتل ومجازر دعني اعرف ما القضية، إسترح قليلا وسأطلب لك قرح شاي كي تطمئن، وأعلمني أنت حقيقة ما في تلعفر، سأعطيك الفرصة، لتنجو وتُنجي كل أولئك الناس المدونة أسماءهم في تقارير لا نعرف واقعها، وأعتقد أنها ارتكزت على نفس طائفي وموقعة من قبل القاعدة.

هذا الكلام أشعرنى بالارتياح وبأن الحقيقة هنا أصبحت هي الأقرب لواقع التصديق فالرجل يتحدث عن تراكمات تلك التقارير التي ترد المخابرات، وقبل أن أتحدث، قرأت سورة الفاتحة لمولاتي أم البنين عليها السلام وهذه مجرّبة عندنا لحل الأزمات وتسهيل الأمر، وأنا رجل خبرت الحياة وأعرف الناس من النظرة الأولى، وأعتقد

أن هذا المحقق يبحث عن الحقيقة لكثرة التقارير التي ترده، شربت الشاي بهدوء وشعرت بالاطمئنان، تحوّل الجهاد من الدفاع عن تلعفر في تلعفر الى الدفاع عن تلعفر في دائرة المخابرات السورية، وأنا سأدافع عن قضية أمة وهوية شعب، المحامي الذي فوضني الموقف لأدافع عن دماء الشهداء فقلت:

صدر أمر من تنظيم القاعدة بعدم السماح للتطوّع في صفوف الجيش والشرطة والقوات الأمنية، وأنت رجل أمن وتعرف خبايا الموضوع، هم يريدون أن يبعدوا الشعب عن حماياته، يريدوننا شعباً دون حماية، فإذا كانت تعني مقاومة الأميركيين كما يدعون، ما علاقة القضية بقتل رجال القانون وموظفي الدولة، ضع نفسك في تلعفر وضع نفسك أيها المحقق في مكان أيّ رجل دولة، قانون، داخلية، موظف إداري، هل يحقُّ للقاعدة قتلك باسم مقاومة الأميركيين؟

يبدو أن المحقق يدرك ما أقول ولديه معلومات مسبقة فهو يهزُّ رأسه بالموافقة، ثمّ قال مستتجاً عدة أمور لذلك كانوا يقتلون أولادكم بهذه الحجج غير المقنعة، تكلمم براحتك وأنا أصغي إليك.

أعلنوا الحرب ضدّنا بشكل علني عبر مواقع التواصل الاجتماعي والمنشورات، وتعرضوا بعدها منزلي إثر تهديد أطلقوه قبل يوم الجريمة، إستهدفوا منزلي بعد صلاة الفجر بصاروخ قاذفة.

أكد كرروا المحاولة ثانية ما دمت خرجت منها سالماً؟ قلت:

نعم تجمعوا أهالي المنطقة ليتداركوا الأمر فاستهدفوا المنطقة بعجلة مفخخة قرب منزلي.

ضحك حينها المحقق وقال:

عدد الشهداء كان ثلاثة وعشرين شهيدا وسبعة عشر جريحا؟

قلت:

نعم ما الذي عرّفك بالأعداد، هل مكتوب لديك ما حدث؟

أبتسم لي وقال:

هم اتهموك بالتفجير وكتبوا هذه الأعداد باعتبارها ضحايا تفجيركم؟

قلت له:

أنا أستطيع أن أعطيك التفاصيل كي تدرك كذب تقاريرهم الخاوية، راح ضحية هذا التفجير ثلاثة وعشرون شهيدا وسبعة عشر جريحا، اثنان وعشرون شهيد من عشيرة الجولاق وشخص واحد من عشيرة آل شحاذ، ومن عائلة بكداش عائلتي تسعة شهداء ومن ضمنهم أولادي الذين قلت عنهم فجّروا أنفسهم، فهم ضحايا هذا التفجير، حصلت مجزرة أيها المحقق، أطفال رضع لم نعثر على جثثهم، وتجمع الناس لانتشال جثث الشهداء والجرحى، وصلت لنا معلومة عاجلة مفخخة ثانية لتقتل الذين تجمعوا لإنقاذ الناس وقام بقصفها ولدي صلاح واستشهد أثناء انفجارها، هل تُعدّ هذا البطل الشهيد متحررا؟ أجنبي المحقق بعين دامعة وقلب ينزف ألما، وصار يتعاطف معي ويؤمن بصدق ما أقول، وتوصل من خلال الحديث إلى استنتاج مهم هو أن هذا الاستهداف لأننا رفضنا الانصياع لأعمالهم الإجرامية فحاربونا، وكان الدعم يأتيهم من تركيا ومن سوريا، لكنه سألني:

هل تعرف مَنْ يكتب ضدكم التقارير ويوزعها على مخابرات الدول؟

إنهم جماعة (فرداش) وهم الآن في تركيا ولديهم مرتكز إعلامي قوي، يغير الحقائق ويزيف الواقع فيكتبون الإشاعات بأننا قتلنا أولادهم وسبينا نساءهم، إنهم يريدون أن نُقتل بصمت ورضا دون أن نقوم بأي رد أو مواجهة، وتلك ليست من شيمة أهل تلعفر.

ضحك المحقق، وقال:

يقولون عنكم روافض وهم يذبحون كلَّ من لا ينتمي إلى القاعدة، أين الحكومة من كل هذا الذي يحصل؟

لا دور لها، ومحافظ الموصل يقول إن القاعدة ضيوف على الموصل.

شعرت أن المحقق يعيش صدمة حقيقية، وانهارت قواه وصار يأسف لكلِّ قضية حكم فيها على الناس مستندا على التقارير، هذا يعني أن وخزة القلب التي انتابني حصل بسببها نتيجة، لكن هل كلُّ المحققين هنا لديهم سعة الصدر والوعي وهذه الروحية؟ أم هناك من هم أساسا من الدواعش ومن القاعدة؟ الله رحمني بهذا المحقق المثقف الذي لا تغريه الأوراق المخبراتية والمعلومات الصارخة.

قال:

لقد سمعنا بتفجير حي الوحدة المرعب والذي لا يؤيده ضمير، وأعتقد من أخطاء داعش الكبيرة، أنهم قساة وهذه القسوة تفضح إدعاءاتهم بالدين والله أكبر ودولة إسلامية، شعب يذهب إلى الطحين يفجرون معاشهم، نعمة الله يحولونها

إلى نعمة بشرية قاتلة، عشرات الضحايا وعشرات المنازل المهدامة، القضية ليست قضية تقارير وشهادات زور، القضية قضية مصير أمة وشعب وقضية ضمير ومبدأ، أغلبهم هرب إلى تركيا لكونه صار يخاف أن يطاله السلام، أتعرف نحن أيضاً مثلكم نحتاج إلى فتوى بمستوى فتوى السيد السيستاني حفظه الله، بل نحتاجها أكثر منكم، أنا لا أستطيع أن أساعدك بشيء سوى أن أوقع جوازك كي تعود سالماً إلى بلدك، لأنني أخشى أن يقتلوك، وأنا أعاهدك أنني سأزور زينب عليها السلام نيابة عنك، وأعرف أن زيارتك مقبولة (قبل الله).

شهادةٌ منبّر

الشهادة ضمير، ولا يعدّ الشاهد محرضا وإنما هو لسان الأمة حين يروي الواقع حسب أبعديته، وما دام هناك شاهد فالقضية لا تموت وإنما تنمو لتكون الوعي النابض عبر التاريخ، منذ أن انتهت الأحداث وكأننا ارتضينا الصمت، خشية أن تكون الشهادة دليل فرقة وتناحر وابن تلعفر لا يريد أن يكون مصدر أذى لأحد، حمل الجراح واكتفى بأن تعود إليه تلعفر سالمة، المرارة ليس بما حدث بل بما يحدث اليوم من شحن إعلامي منحرف مختص بتزييف هذا الواقع ليكون الجلاد هو الضحية ويرسم الإعلام من دم الشهداء إرهابا، والخارج يشيع أن المجرمين الهارين من وجه العدالة والذين يعيشون في كنف الهجرة تحت عنوان التهجير، الى اليوم يصورون للعالم أن جهاد أبناء تلعفر من أجل الحفاظ على أرواحهم يعتبرونه جرائم وخراب بينما خرابهم وقتلهم وتفجيراتهم وتفخيخهم هو جهاد يُقرنُ بالله أكبر، عشرات اللآلاف من الضحايا ونحن ساكتون، السكوت وعدم إدلاء الشهادات هزيمة، يعني أنهم هزمونا داخل أنفسنا وهذا مالا نرتضيه، نعم، نخفي المرارة، لكن لا يمكن أن نترك الأمور تحت تصرفهم بعد تلك الجرائم التي ارتكبوها، تجربة تلعفر تجربة مثيرة لا بد للعالم أن يطلع عليها وأن نعتمد قضية التوثيق عبر هذه الشهادات لا

نريد لمن امتلك الجريمة ضميراً أن يعود ليتسلط على رقاب أولادنا، تلعفر تستحق ان نبرز للعالم حقيقتها كي لا تظلم مرتين، يكفي ما عانت وما عاشت من معاناة وأذى، تستحق تلك الجرائم التي ارتكبت في تلعفر أن يطّلع عليها العالم، نحن أبناء الجرح، نحن أبناء الدم المهدور، سأعلن للعالم شهادتي وانا على منبر رسول الله ﷺ وخادم المنبر الحسيني للوعظ والإرشاد، حين أفتتح المجلس:

(يا ليتنا كنا معكم فنفوز فوزاً عظيماً) هذه الجملة العالية الشأن من كثرة تكرارها أصبحت نمطية ليس فيها حرارة الاقتداء الحقيقي، في تلعفر حضرنا الطف بكل ما تملك من صدق وتضحية وكُنّا نحن الأقرب للحسين ﷺ، تأكدي أن الحسين عليه السلام معنا، لأن الحسين بتكوينه الرسالي هو مع المظلوم، من أيّ دين كان، الحسين عليه السلام مع الضحايا، فهو لا يرتضي بما لا يرضاه الله سبحانه تعالى، كل ابن فاجعة هو مع الحسين ﷺ.

المنبر يُصنع من خشب لكنّه بركات نبي الرحمة يتحول إلى روح وله قلب ينبض بالحياة وهو كان حاضراً، وقال انتبهوا أيّها الناس في غياب الأمن ينشط الإرهاب، لذلك قتلوا رجال الأمن، ليسفكوا الدماء وليعذبوا كلّ من هو تحت راية الأمن يعمل، استغلوا غياب الأمن فحخوا البيوت، فحخوا الشوارع والأماكن العامة والأحزمة الناسفة ليفجروها وسط الأسواق، هل هناك جريمة أكبر من تفجير الأسواق، وهو مصدر أرزاق الناس ومصدر قوتهم، فأهل تلعفر ناس بسطاء، يعملون ليل نهار كي يوفروا قوت عوائلهم، هم ليسوا جيشاً ولا بيوتهم معسكرات وميادين قتال، لا يجيدون حرب الشوارع ولا عندهم قابلية قتل الناس، كان التعاون واضحاً بين الدواعش وقوات التحالف للبطش وزرع بذور الفرقة، وعندني بعض الشهادات التي دونها الناس:

حدّثني أحد رجال شرطة تلعفر، قال:

كُنَّا ننتقل بصناديق السيارات لأننا مستهدفون، كيف سنوفر الأمان للناس ونحن بلا أمان؟

وحدّثني متتسب آخر:

لأن مدير شرطة القضاء (العقيد إسماعيل الموسوي) من عشيرة السادة آل وهب، شنّ الدواعش على عشيرة السادة هجومات متواصلة وصارت قضية آل وهب والقضاء عليهم من أولى واجبات اسلام داعش!

هناك تشخيص مهم لبحث مرجعي عن قضية القتل او تصفية الجسد، وبمعنى الإزاحة الإغتيال كلها أسماء واحدة تعني نهاية إنسان، وتنفيذ الحكم بالموت عليه، وسلب حياته هذا المتعارف عليه إنسانيا، لكن ما حصل في الطف الحسيني المبارك انهم لم يكتفوا بقتل الحسين (عليه السلام)، وانما راحوا إلى مرحلة أعمق من القتل والإبادة فقطعوا رأسه وحملوه إلى ابن زياد أسيرا، ولم يكتفوا بل سحقوا الجسد بسنابك الخيول وما اكتفوا بذلك بل أخذوا النساء سبايا، وهذه أطلق عليها البحث مرحلة التشفي وهي عملية قاسية وجائرة وغريبة عن الإسلام، فما حدث في تلعفر هو أبعد من التصفية بل قادهم حقدهم إلى التشفي بموت الإنسان.

سأروي لكم حكاية يشهد لها عشرات التلعفريون وذكرها الدواعش في بعض إعلامهم يفتخرون بها.

هناك سيد من عائلة الموسويين يعمل مفوض شرطة، وقذائف هاون أسقطت الكثير من الضحايا وبعدها قصفوا المستشفى فنقلوا الجرحى إلى الموصل، أوقفوا

السيارة واختطفوا الجرحى ثُمَّ قتلوهم وبعدها قطعوا رؤوسهم وبعد ذلك فتحوا بطنهم وفخخوا جثثهم!، ثم رموا جثة السيد الصغير ابن المفوض السيد محسن ليضعوه أمام محطة الوقود ثم يفجرون الجثة بالأب، الى أين تصل عقلية الإنسان حين يفتخر بمثل هذا العمل الشائن؟!

حديث المنبر فيه غصة ألم، ووجع كبير، رأيت مشاهد في تلعفر قريبة نوعا ما من مشهد الطف بعد الواقعة جثث متناثرة، وأجساد ممزقة منتشرة أشلاء على الأرض، الرؤوس تنتشر على مساحة من الأرض والأجساد المفخخة، ليزرعوا الرعب في قلوب الناس، مهما تكن بلاغة الجراح فهي قاصرة عن احتواء كامل الموقف، أحداث وجراح وجرائم يقشع لها الجسد، قرر الشيخ حسن بكتاش بتشكيل مجموعة من الشباب للدفاع عن عشيرة السادة، كلُّ يوم لديهم شهداء وجرحى وصلت الحال أنهم لا يستطيعون دفن ضحاياهم!

وآلاف المصادر تنسب القول للنبي ﷺ ومنها تنسبه لأmir المؤمنين علي عليه السلام: (إكرام الميت دفنه)، وأنا رأيت بعيني إنسانا مات ففجر الدواعش مراسيم دفنه ومن ثُمَّ فجروا المقبرة وبعدها فخخوا الماتم ليروح ضحيته عشرون شخصا، هذه القضايا لا بد أن يقف عليها العالم بدل أن يقرأ السورة بالمقلوب، جرائم كبيرة كيف تتحمل وزرها الشعوب والحكومات وأنا متأكد أنهم لا يعرفون هذه الحقائق، أكلُّ هذا القتل من أجل المال؟ والمشكلة أن نسكت أمام تجار الدم وما يثيرونه من اعلام يظهر لهم التجار مدافعين عن دينهم وحياتهم، ولا بد من تحشيد أصواتكم وشهادتكم، ومن على منبر رسول الله ﷺ، كان لا بد من مواجهة تردعهم والا سيفتكون بنا، لذلك تم تشكيل مجموعة (إنقاذ الإسلام) وهم من أهالي تلعفر، قامت بملاحقة

التنظيمات الإرهابية فكانت صدمة للإرهابيين، أول مجموعة شعبية وقفت ضدهم، فقام الدواعش بالتحري عن مجموعة إنقاذ المسلمين، وانكشفت أعضاء المجموعة، قام الدواعش بالاعتداء على البيوت ورميها بالقاذفات وانفجرت سيارة محملة بالمتفجرات كانت الضحايا إثنين وعشرين شهيدا ومائة وخمس وسبعين جريحا، والمشكلة أن الأهالي لا يمتلكون أسلحة ولا أعددة أمام العدو المكتمل من العدة والعدد والذي يعتمد على تسليح أمريكي حديث ومرترقة من جميع الجنسيات ومنهم أبناء الخط المنحرف من أبناء تلعفر.

وردتني شهادة من صديق تاجر، وهو خريج كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية، وجد مجلة أمريكية باللغة إسمها (تلعفر) صادرة من أمريكا، تخطط هذه المجلة للاهتمام بتلعفر بشكل خاص أي بمعنى الإهتمام حسب وصف المجلة المطالبة بزرع الفتنة، كُنَّا نرى أن وجود العشائر في تلعفر سيمنع هذه الفتنة وستجاوزها تلعفر، لكن أمريكا نجحت بزرع الطائفية بالبلد وقسمت المنطقة وصولاً الى محطة الوقود بيد الشيعة وما بعد محطة الوقود بيد تنظيم القاعدة الإرهابية، الأمريكان كانوا يدعمون الإرهابيين بالسلاح ويحامل الناس، والناس عرفت الحقيقة.

الشهادة تمنع المراوغين من التهادي وتحافظ على قداسة كل دمعة ذرفتها عين مظلوم، الشهادة روح السلام اليوم، مادامت الشهادات حيّة لا تقدر أساليب البطش أن تغير وجه المدينة ولهذا سأدلي بشهادتي وأنا على منبر رسول الله ﷺ، عند تفجير حي الوحدة كنت في جامع الحكيم أودي الصلاة، بعد انتهاء التفجير إختفت معالم المدينة حتى كدت لا أعرفها، حرام والله أن يصل الإجرام لحد خداع النفس، حفظوا كلّ أوجه الجريمة فصارت لديهم فراسة في القتل.

وفي شهادة من طالب جامعي من تلعفر قال: كُنَّا خمسة أشخاص في سيارة جميعهم طلبة جامعة أوقفت سيطرة السيارة فجأة، قتلوا واحدا مِنَّا وتركونا نعبر السيطرة، لماذا هذا الطالب دون غيره وَمَن الذي عرّفهم بالهوية، توسم جبين المقتول بالرفض لداعش الجريمة والحقد الإنساني، كيف عرفوه يختلف عن انتمائهم، هم كالكلاب لديهم حاسة الشم قوية، ولديهم مَن يمولهم بالجريمة، الانتماء السني أيضا محكوم برقابة مشددة، منعهم الدواعش من التعاون معنا بأي شكل من الأشكال.

كنت أعظ الناس، أنبهم وأقول لهم، إحذروا داعش اياكم أن تكونوا ضحية خداعهم المرير، كنت أنادي من على المنبر هؤلاء الدواعش يريدون تمزيق وحدتنا، البعض كان يعتقد بأني لا أريد الخير لأهل تلعفر، وغير منصف، كان إذا جرح داعشي تبرك الناس بجرحه، يأخذون ملابس الجرحى ليتبركوا بها، لأنهم خدعوا الناس جاءوا باسم الله وباسم الدين، وكانوا يتبركون بهم.

الحمد لله أن مَن علينا ببركة الفتوى المقدسة التي أنقذت البلاد، والحمد لله على نصره المبين، وليقل كل واحد من المظلومين شهادته.

إشارة

للتاريخ منافذ كثيرة يعرفها أهل الاختصاص، ولعلنا لا نجانب الصواب إن قلنا إن الأدب والفن من أقدم وأشهر منافذه، وإذا كان التاريخ سجلا للوقائع والأحداث والتحويلات الكبرى، فإن الفن هو سجل حركة الروح في فضاء الواقع.

هذا العمل هو من ضمن سلسلة أعمال أدبية، كابدت أسوأ الفظاعات التي ارتكبتها زمر القاعدة وداعش في العراق، وعبرت عن أكثر لحظات التاريخ سوادا، لكي تروي لنا ما حدث هنا على أرض العراق، في مخاضاته العسيرة.

وقد عملت الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة على توثيق أهم وأخطر مرحلة مرّت على العراق في تاريخه الحديث من خلال موسوعة وهي (موسوعة توثيق إرهاب القاعدة وداعش في العراق من العام ٢٠٠٣ ولغاية العام ٢٠١٧م)، وجاء التوثيق من لدن لجنة عليا في العتبة المقدسة، على جنتين، الأولى اللجنة العلمية المعتمدة على الاحصاءات والوثائق والشهادات، واللجنة الثانية هي اللجنة الأدبية التي استقى الأدباء في مجالات (الشعر، والقصة، والرواية، والمسرح) موضوعاتهم الابداعية لإنتاج نصوصهم الأدبية من الوقائع التاريخية التي وثقتها اللجنة الأولى،

وبهذا يكون عمل الجنبتين من لدن اللجنة عملا تكامليا ، يشد أحدهما عضد الآخر ، وعلى الرغم من أن الاحداث التي رصدها الادباء المبدعون ممن أسهم في حركة التوثيق بجنبتها الادبية من هذه الموسوعة كانت في مجملها أحداث تاريخية واقعية ، لكن الأدباء أجروا عليها بعض التعديلات الفنية التي تسهم في وضع المسوح الادبية على النصوص الابداعية، من أجل تحقيق الشعرية التي لا يمكن توافرها في الكتابات من دون اجراء الصياغات الابداعية في النصوص الادبية سواء أكانت سردية، أم شعرية، أم درامية، أم تشكيلية وسوى ذلك، لكنها جميعا تروي حكاية فينيق البلاد الذي ينبعث من رماده كل مرة نافضا موته، هازئا بقاتليه . في الختام ، فإن توثيق الاحداث أدبيا لا يقل أهمية عن توثيقها علميا عبر الوثائق والاحصاءات والشهادات، بل قد تكون اكثر وقعا؛ لأنها تعتمد على الواقعة التاريخية من جهة، وعلى العاطفة الانسانية من جهة اخرى، أي انها تضغط على ذهنية المتلقي معرفيا وعاطفيا.

المحتويات

المحتويات

٧	اليشاغ الأسود
١١	إمرأة تلعفرية
١٥	دمعة مجهولة الهوية
١٩	شهقات مدينة
٢٣	شوكة في عين داعشي
٢٦	اللقاء على ضفاف النزوح
٣١	التمثال
٣٥	بئر علو
٣٩	الحاسة السادسة
٤٥	سرايب الذاكرة
٥٠	أنا سني

- كرة قدم ٥٧
- أحذرك منها فهي تخون ٦٣
- الصحفية الحسنة ٧٢
- مشروع رواية ٧٨
- موت المدن ٨٦
- السماة عصية على التخريب ٩١
- أبعد من القتل ٩٦
- إلقاء القبض على شهيد ١٠٢
- السؤال الصعب ١٠٨
- حكاية جامع ١١٧
- الثواب ١٢٣
- وخزة قلب ١٢٧
- شهادة منبر ١٣٥
- إشارة ١٤١
- المحتويات ١٤٣

